سماء زيدان

رواية

حَب الرُمان

ميريت

حَب الرُمان

حَب الرُمان

رواية

سماء زيدان

الطبعة الأولى ٢٠١٥

دار ميريت

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

موبايل / ٠١١٤٢١٣٨٩٢٥

www.darmerit.com

info@darmerit.com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: عبد الله أحمد

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٣٠١٢

الترقيم الدولي: 978-977-351-751-9

سماء زيدان

حَب الرُمان

روايـة

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٥

الإهداء

إلى كل من آمن بي حين لم أؤمن أنا بنفسي.. أهدي إليكم كلماتي وإني لأجد فيها ريح أبي.

لا تزال أرض الفرح بعيدة، تسكنني رائحتها، هل سألت الله يوما حياة جديدة، هل أخبرته أن حياتك ثقيلة وأن الكون يعاتبك أنك لا تذكر.. تسألني أي حكاية من العمر آلمتني وأعادتني إلى ذلك الحزن الأصيل الساكن في الروح.. أو أي فرح ردني إلى الطفولة.. تسألني عن أشياء كثيرة تملؤني لم أُحدّثك عنها، بحزن سأحدثك عن شيء استيقظ فجأة في داخلي، استيقظ في غيابك وربما رحل خلفك، سأُخبرك أنني منذ وقت طويل توقفت عن سرد كل شيء، تعلّمت الاحتفاظ بالمعنى بداخلي في صمت، تعلمت أن أصبح بئرا تملؤه صدى الأمنيات، أحلام بيضاء تتشبث بجدرانه، تعلمت ألا أحكي الحكاية إلا عندما تكتمل، تولد ندية، تحكي نفسها بنفسها، وكيف *تسألني عن* كلّ هذا الوجد وأنت وحدك العالم بقلبي وما يسكنه!

سأخبرك عن هؤلاء الذين يظنون أنهم يعرفون كل شيء، يقدرون أنفسهم، يعتقدون أنهم يمتلكون الإجابات، يُزعجني افتقادهم للشغف وللفراغ، لمساحة من الشك، يمكنك قراءتهم من الحرف الأول.. يخرج من فمهم لزجا ممجوجا.. تصمت وتغمض عينيك دون أن تصيبك الدهشة أو الانتباه.

أتعرف كيف يموت الإنسان وهو حي؟ يموت جزءا بعد جزء، أتعرف متى تنطفئ العين؟ حين يسكنها الفراغ وتنسى المعني.. أتعرف هؤلاء الذين لا يرون في أحضان الشجر أعشاش الطيور، ولا يرون في البحر سوى زرقته؟ يغنون اللحن ولا يميزون آلته.. أتعرف متى يحتجون؟ فقط إن توقفت متعتهم.

سأخبرك عني.. عن قصتي.. عن الرمز في كل تفاصيل حياتي عن أنني أنا الرمز.. أو ربما أنا أقل من ذلك، لكنني كحبة رمل تحوي كل أسرار الصحراء وكقطرة ندى تحوي منذ بدء الخلق سر الحياة.

الرمز جزء من الكون، يعرفه الصادقون، يعرفه المؤمنون حتى وإن لم يُجيدوا تفسيره.

متى حكي البحر عما في باطنه أو فسر الهواء حديث الأحياء والأموات الذي يحمله!

الرمز شيء لا نفهمه، شيء غامض يمسّ قلبك ويملؤك بمعناه.. كالإيمان.. كالوحي.. كحديث الله الهامس إليك قبل مولدك ويوم مماتك.

ستعرف المعنى فقط حين تفهم لغة القدر ورسالته إليك، تتعلم الروح أن تنصت له، وتتذكر، ستعرف المعنى حين تسمع بداخلك لحن الاستسلام لكلماته التي صيغت بعناية، وكتبت بحسم قبل أن يحدث أو يقال كل أو أي شيء.

ستعرف حين ينتهي كل شيء، أو ننتهي إلى لا شيء.

الرمز لغة القدر، نسيناها في الصخب، فقدنا أبجديتها لحظة ميلادنا، تُذكرنا أحرفها بإلحاح كل يوم، كل لحظة، كل ألم.

في أحضان كل خلية وكل قطرة دم رسالة مطوية، رسالة تقول من أنت، وماذا ستفعل، وإلى أين تذهب، رسالة تخاطب من وعى وتعلم، وأنت لم تتعلم بعد، غامضة تستغرقك عمرا بكامله لتقرأها، ستعرف المعنى فقط حين يوجعك انقطاع الوحي أو يرتد إليك فجأة.

كل شيء يمر بنا يشارك في بنائنا، كان صوتك مملوءا بالشجن وأنت تشرح لي كيف يبني الحزن ما عجز الفرح أن يبنيه... لا شيء في الكون يقوى على وصف الحزن.. الحزن مقيم لا مفر منه... علمتني أنّ الحزن حق كالضحك.

وأنت فيك بعض حزني ومنك كل بهجتي... منك الطمأنينة.. منك بعض خوفي وفيك كل سكينتي.

أرسلت إليك تلك الكلمات التي حملت بين أحرفها نداءات استغاثة مشفرة، كالتي تلقى في زجاجات للبحر.. مغلقة... لا ماء البحر يقتحمها ولا الشاطئ يرسو بها إلى حيث تسكن..

لم أكن قبلك أعلم أن الشوق قاتل كهذا الوجع الذي يسكنُ صدري الآن ولا أعلم موطنه، كيف يُسكب الفردوس في قلبي، ثم يُلقي به وحيدا إلى مساحات الخذلان، كيف يذهب أحد ما إلى الألم وهو واع به؟! كالفراشات وعشقها للاحتراق، ربما فقط ليعيد ترتيب فوضى روحه. سأخبرك عن كل شيء، ثم أعود ممتلئة بكل ما لم يُقلْ.

حينَ تضيقُ بك نفسك، يضيقُ بك كُل براح الكون، هل ترى البحر؟ كنت أحب البحر إلى جوارك.. أصبحت أخافه وأخشى خلوتي معك، أشعر أنّ الأمواج تعلو وتزبد كي تبتلعني فقط، تبتلعني أنا من بين كُل الراقدين أمامه. أبتعد، وأحتمي بالشاطئ، بالرمال بالظلال.. وأختفي خلف ضحكات الأولاد وصيحات باعة الفريسكا الحلوة بالعسل في صندوق زجاجي مغلق محمول فوق أعناقهم ينادون: فريسكا.. فريسكا.. رقائق هشة بالعسل.

الفريسكا الحلوة منداة بملح البحر.. تشبهني الفريسكا.. هكذا أنا، هشة بين يديك كلما أمسكت بها تنكسر ألف قطعة، وكلما تركتها للبحر والهواء أخرجتها عن معناها، الفريسكا تؤكل دافئة سريعا، مقرمشة حلوة، تؤكل كاملة دفعة واحدة، لا يكفيك حلوها، تتركها تتندى وتتملح وتتعرق.. تلتصق حبات الرمال في يديك بالعسل.

ما حدث قد حدث.. كل ما عليك الآن هو أن تستريح وترقد، ترقد... في سلام... ترقد بداخلي..

مها

لا أريد أن أفقدك يا سارة.. أبتلع طعامي دفعة واحدة، أو ربما أنسى ابتلاعه، وأتركه في فمي، حتى يذوب ويسقط في أحشائي وحده، بلا عون مني، أراقب الساعة وأدفعها للأمام، في الطريق إلى مطار تورنتو بكندا لأستقبل خالي مصطفى، عاد من القاهرة بعد أن أتم مراسم دفن محمد في بلدتنا، إلى جوار قبر أبيه وجدي وبين أحضانه. أُلقي بنفسي في أحضانه، وأبكي حتى يرتفع صوتي، ولا أبالي بمن حولي، يتحرك بي خالي نحو بوابة الخروج، ضامًّا جسدي الذي ازداد نحولا إلى صدره.

– يقولون لا فائدة يا خالي، سيوقفون الحياة الصناعية التي تحياها.

– كله بأمر الله يا مها..

هل يقول هذا لأنه فقد ابنه محمد؟! ألا يعرف أن سارة هي كل ما لي.

يتوقف خالي إلى جوار سيارة الأجرة، ويشير إلى شخص قادم يخرج من بوابة المطار خلفنا، لم أتمكن من تحديد ملامحه عيناي مغلقتان من البكاء، ما إن يقترب مني مصافحا، حتى أتعرف على عطره، ذلك العطر الذي طالما أسرني لسنوات، كنت أحب كلاهما..

– هشام ابنتنا سارة يا هشام تموت. أبكي بحرقة أكبر وألقي بنفسي بين ذراعيه غير عابئة بزوجته، التي تقف خلفه.. خلفه تماما..

كعادته صامتا يبكي، وينظر للسماء.

– ربنا موجود يا مها. يردد..

أتناسى موافقته على زواج سارة من محمد دون علمي، ومباركته لسفرها دون علمي، أو ربما لن أنسى له ذلك أبدا، وأنتظر وقت الحساب، كيف رآها بثوب زفافها قبلي، وأمسك بيدها ووضعها بين يدي محمد دوني، تحول كل ما

بيننا إلى سراب وعناد فوق العناد، ربما لو كانت سارة سعيدة الآن لما تذكرت ما فعل..

زوجته.. تقترب مني محاولة تعزيتي، أدفعها بخشونة، وأبتعد مع خالي نحو السيارة، من خلف رأسي أري نظراتها المستكينة الخاضعة لهشام، تشكو له سوء معاملتي وعجرفتي، وأرى يده تحيط بخصرها، وكعب حذائها يدق في الأرض وتتردد صدى دقاته أسفل قدمي، أشعر بها تتسلل ذبذبات إلى جسدي، تشعله نارا بمكان ما، يطفئها رثائي لها، إن رأت هشام بالصورة التي أراه عليها منذ سنوات.

نصل للمستشفى، ويلحق بنا هشام، بدا في ملابس السفر كهلا منهكا، انحنت قامته، استبدل بها بالطو صوفيا طويلا أسود زاده شيبة وانحناء، كانت زوجته ترتدي معطفا من الفرو السميك، له مظهر منتفخ يجعلها تبدو كدُب قطبي، زائغة البصر منبهرة بما حولها، كحل عينيها غليظ يفضح نهم حدقاتها، وأحمر شفاهها متشقق يلهث من ساعات السفر، الفراء يغطي ركبتيها المتلئتين، وتلتقي أطرافه برقبة حذائها الجلدي اللامع، ذي العنق الطويل مدبب الكعب، لا أدري لظهرها سببا، سوى أنها تخفي فيه أحلامها التي لم تكتمل، حياة لم تجدها كما تمنتها...

كان خالي مصطفى كعادته بسيطا، يرتدي جاكيته الجلدي البني، فوق ملابسه الصوفية السميكة..

أتاني في جيبه بحلوى العسلية من مصر، يملأ جيوبه بطعم الطفولة ورائحتها، خشخشة السوليفان تحمل الذكريات البعيدة والتفاصيل، يوقظ ذلك الصوت الهامس حنينا غامضا مؤرقا، حنين يدفعنا للطفولة وإن لم تكن سعيدة بالكامل، حنين لسنوات تاهت، بقيت منها رائحتها، طعم العسلية يختصر كل تلك السنوات، لحظة خشخشة تهبني ابتسامة ساذجة.

بين أصوات الآلات وروائح الأدوية، والملابس البيضاء، وأشعة الشمس النابتة، ننتظر بصبر، لساعات أنام جالسة، تعودت على ذلك حتى أن نومي أصبح كنوم الدجاجات مسروقا، أو كنقرها متقطعا، تتحرك وتظنها تمشي، كل ما لها من النوم بعثرة أحلامها كطعامها.

أنتظر كلمات من الطبيب، حارقة كمشرط الجراح ستقتلني.. تخرج من فمه سهلة، يحاول أن يقولها بهدوء كضوء البرق، لا يدري كيف صوت الرعد سيكون، ومن سيحرق ومن سيهلك..

يلقيها كالجبل فوقي، كالجدار الذي يتوعدون به من تنجب الأنثى، "لما جالي ولد انشد ظهري وانسند ولما قالوا دي بنية اتهد ركن الدار عليّا"

تنهدم الدار كلها، والدنيا كلها فوق رأسي بفقدك يا سارة، صدري يؤلني، يوجعني وقد امتلأ لبنا وربما هما، ينز منه له لون أبيض، رائحته كرائحة القهر والحرمان.

أنكمش وهم يدفعون جسدك الهزيل المستسلم، فوق عربة المستشفى.. المغطى بملاءات بيضاء، كالأكفان لا فرق، ويتحركون بك نحو غرفة المراقبة للمرة الأخيرة، في الممرات الصامتة إلا من صوت العجلات، وستائر الغرف المسدلة التي تحجب ضوء النهار، أتبعك بخطى متخبطة، تلتف أقدامي حول بعضها، ولا أجد من يتشبث بثوبي، أتعثر بلا سبب سوى تخيلي أنك تدورين حول ساقي، وتمسكين بي، يسندني خالي مصطفى وهشام كل منهما من جهة، كل منهما يحتاج من يملأ روحه بعد ما فقد، ثلاثتنا انطفأ بروحنا مصباحان.

هل هناك تاريخ لأمراض القلب في الأسرة، نعم... يحيا كل من أعرف منهم، مهموما ممتلئا بالقهر والحسرة.

حين أودعك يا سارة ستنطفئ نصف مصابيح أمني، تلك المنطقة المظلمة في روحي، ستصبح أشد إظلاما وموتا، عصية علي كل كلمات الأمل، أن توقظها،

أختزل الساعات في نومي جالسة، أفيق لأجد نفسي راقدة في غرفة المرضى، معلقة ذراعي بالمحاليل، وحولي آلات تطن طنينا كآلات الحفر في الأسفلت، في الغرفة كان السقف جاثما فوق صدري.

نجوى أيوب إلى جواري تمسك بيدي، تبكي وتمسح رأسي بماء الورد، وفي كفيها رائحة حنائها السوداء وزيت شعرها المعطر بالكافور، كانت أمها معها وكان خالي مصطفى بالغرفة، وكنت أبكي وأنا نائمة.

كنت أسمع صوتي وأنا أبكي، لكنني لا أدري كيف أفعل ذلك، كنت لا أملك سحب يدي نحو بطني الفارغ، يدي مغلولة إلى جوار جسدي المصلوب في الفراش، المكبل بالحزن والألم، بطني الذي فقد جنينه بعد ربع قرن من حياته على الأرض، كنت أضرب صدري بقبضتي ولا أدري كيف أمسكها، كانت عروقي جافة، وكنت أبحث عن نار أنطفئ بها، أطفئ بها حريق قلبي وكبدي، ألقي بنفسي فيها تخلصني من ألم أكبر. كنت أرى سارة كذرات مبعثرة حولي، كنت أسمع همسها في شعري، أسمع "يا ماما" بصوتها وهي طفلة كأنما صوتها مسجل فوق ذرات هذا الكون، الذي لا أعلم أين تذهب بصماتنا فوقه إن كانت لا تنتهي ولا تفنى!

دوما كنتِ ذكية حكيمة، أقدر مني على إصلاح تشوهات علاقتنا، وابتكار طرق تشبكنا معا، كنت ترسمين اسمي وتطلبين مني أن أرسم اسمك، وتعلقينهما فوق حوائط البيت لنراهما معا، كنت تلصقين صورتك بدولابي، وتكتبين لي فوق وسادتك بحبر سري، لا وجود له، لا يراه سوانا "أنا أحب أمي"، كنت أهمس في لقيماتك الصغيرة وأنت تأكلين "أنا أحب سارة... سارة حبيبتي وكنت تأكلينها وتقولين لي إنها أبلغتك بما همست لها سرا، وكنت تمسكين بشعري المجعد بين أطراف أصابعك الصغيرة وتهمسين له "أنا وماما

نحب بعضنا"، وتفركين شعري وتطلبين منه إبلاغي حين أستيقظ.. وكان يخبرني...

كنت أقبل أصابعك إصبعا إصبعا وأنت نائمة، لتستيقظي وريقي بكل خلاياك، وأنفاسي تحوطك، ماذا حدث بيننا يا سارة؟ هل يئست مني؟ متى ألقيت بكل هذا العبء خلف ظهرك؟ متى رأيتِ في محمد منقذك ومخلصك مني؟

في سيرتي الأولى

الأحلام الكبيرة فرح مؤجل لا يأتي غالبا، أحتاج لأن أُنجب من جديد، أُخرج للكون روحا نقية طاهرة، أُبعث فيها من جديد، أحيا فيها مرة أخرى، أي خلود أعظم من أمومتي! روح نقية تطهرني وربما تطهر الكون بي. أمومتي للكون كانت دائما منقوصة الألم. يخدرني الطبيب أو تنسيني نشوة السعادة لذة التطهر بالألم.. وددت لو أن الطبيب ترك لي ساعة ألم، ساعة ألم تكتمل بها أمومتي.

مررت بالسوق أشتري فاكهة.. اليوم حار، وكأنما امتص شهر سبتمبر لهيب أشهر الصيف مجتمعة ليلقيها في وجوهنا، الهواء ساخن، لكن من وقت لآخر تتسرب بعض النسمات الخريفية إلى ملابسي تجفف عرقي فأطيل السير بين الباعة، فخذيَّ الملتصقان المكتنزان بالدهون تنزان قطرات من العرق يمكنني رؤيتها تتساقط على الأرض، يقولون إن الأفخاذ الممتلئة رمز الخصوبة، وتقول أمي إن طعامي غير متزن أبتلع الجبن والحلوى بشراهة، وتقول ابنتي إنها تفضل الشفاه الممتلئة رمزا للخصوبة، وأنا لم أعد أهتم باكتناز فخذيَّ، أو بوزني أو بالخصوبة.

أحب تأمل وجوه الباعة ونظراتهم المعلقة بثمارهم وهي بين يدي المتجولين ينظرون بضيق إن لم يشتروا، وينظرون بضيق إن امتدت أيديهم إلى أبعد ما في الصندوق أو إلى ما رُص في وجه الصندوق، يضيقون بيد دخيلة تتحرك في محرابهم.

ترتفع أصوات نداءاتهم يدللون بضاعتهم.. حمرا يا أوطة.. سكر يا شهد.. عسل يا عنب... دلال ولو بالكذب تنتشي به بضاعتهم، الفاكهة كالنساء تنتشي وتتألق بالدلال.

أسير بين روائح الليمون وأتعثر في باعة أم الخلول، لزجة حادة المذاق، لكنها واضحة، أكره الطعم المحايد، تبتل أنفي برائحة البحر واللزوجة والملح، تتسرب إلى قدمي نداوة الطريق، يبتل حذائي القماش الرياضي الخفيف، لا أكترث سأعيد تنظيفه، لدي منه كل ألوان الصيف الماضي، لا أهتم بالموضة، يمكنني الإصرار على لون واحد طوال العام، أرتديه وبإصرار، أفرضه على عيون من حولي.

أحب أغطية الرأس المنقوشة الملونة، الرأس أهم ما في الجسد وغطاؤها يجب أن يكلل ما بداخلها ويشي به.

الباعة بين أيديهم أكواز صفيح مثقوبة، يرشون ثمارهم ويسكبون الماء حولها، يبرد الطريق ويبرد الهواء، رش الماء حول الفاكهة دلال لها، لا أحب الأكواب البلاستيكية بين يدي الباعة في السوق، تبدو دخيلة مقلدة ولا تحترم المكان..

الصوت الحاد في النداء يبدو متمردا على عمله، تختلط الأصوات بالتحية فيما بينهم، يصمتون حين تقترب، يريدونك أن تعتقد أنهم يتنافسون والحقيقة أنهم عائلة واحدة وإن لم تربطهم الدماء.

لا أحب شقاء الثمار وهي تنتظر من يلتقطها، تتلهف أن تُلتقط قبل أن تذبل، يراق ماء وجهها وهي تنتظر، بشرتها محملة بآلاف البصمات وعرق الأصابع، لا أحب لحظة انتهاك صمتها وأمنها وهي تُلتقط بلا استئذان، تستسلم وتلقى في الكيس الورقي البني..

استوقفتني سيدة تفترش الأرض، أمامها صندوق مليء بثمار الرمان اللامعة، ذات اللون الأحمر القاني، باطن كفيها به صبغة من ريق حبات الرمان المنسكب، صبغة حمراء قانية، تبدو بكفيها كحناء راقية، إلى جوار فرشتها صندوق آخر تلقي فيه الثمار الذابلة العطبة، أو اليافعة التي فتحت عنوة قبل

أوانها. أشارت إليّ تنادي بصوت به غواية "حب الجنة يا رمان" وقفت أتأمل جلال استدارة الثمار ولمعة قشرتها، التقطت المرأةُ بأظافرها ثمرة وفتحتها لي، يا الله! ما أعظم تراص حب الرمان داخل ثمرته، وتماسكه بغلالته البيضاء الشفيفة، أمسكت بأناملها حبة ياقوتية ممتلئة بالعصير، غضة مكتنزة بالحياة، دهستها وفركتها بين أصابعها فانفجرت نداوتها، وانسكب ماؤها مُجددا صبغ يديها، اشتريت منها، حتى لا أُخجل الثمرة، يا لها من ماكرة! تركت بيدي بعض الصباغ وهي تلمس كفي بأصابعها لتلتقط النقود...

حب الرمان متشابه وغير متشابه كل حبة متفردة، تبدو كمثيلاتها، لكنها غيرهن، كل حبة صنعها التصاقها بقشرتها، مكانها بين الأخريات أكسبها تفردها، وغذتها الثمرة الأم برحيق واحد، إنما لكل حبة مذاق عن الأخريات، تبدو كبويضات متراصة في كيس محكم الغلق..

أنا وأمي فاطمة وابنتي سارة وجدتي زُهيرة، أربعة حبات رمان تبدو متشابهة وتبدو مختلفة، بنات حواء.. بنات إيزيس.. بنات عشتار.. تحل بكل منا روحكن وتمضي لتحل الأخرى محلها، ننتقل بين الأمومة والفداء والإخلاص والغواية والوفاء. قد نلتقي في إحداها فنظن التشابه بيننا، وقد تختلف المواقيت فنظن الاختلاف.

أربعة أجيال من التعاسات يجمع بيننا شيء ما وتفرقنا أشياء. ربما لنا ذات الشعر أو لون العينين، أو ربما فورة الغضب. نحظى بذات الخصوبة والدفء المتفرد، الذي طالما تفاخرت به عائلتنا، وإذا به وبال على كل منا، شفاه مكتنزة وأرداف تتبعها، استدارة في الخصر وصدر يحمل الجبال ولا يحمل رأس رجل لا نهواه، بريق في العيون ولغة صامتة، ودعوة ترقى في الأثير يسمعها كل ذكر حي، رائحة النداء تلتقطها آذان الذكور، دعوة متمنعة،

مواسم التزاوج خلقت للأخريات أما نحن طوال العام لنا موسم، وكل عقود العمر ربيع..

كل عشر سنوات تولد بداخل كل منا امرأة جديدة، تخلع عنها عجز سابقتها، قد تبدو كحية تخلع عباءتها، بحسب ما تريد أن تراها، أو كزهرة تتفتح بداخلها ألف زهرة، كلما ذبلت واحدة استدعت روح أخرى لتحل بها.

تفصل بيننا عقود لا تعني لكل منا شيئا، فكل منا تحمل خيطا يصل بها إلى حيث تلتقي أرواح جداتها، تحكي وتسامر وتتصاخب.

إرث عائلي تتمتع به كل منا، لم نتبادل خبراته فقط كل منا تعرف أن مثيلاتها يعرفن ما تعرف، لا حاجة بنا للحديث.

ما إن تقترب إحدانا من حافة الانهيار، تبني حول نفسها جدارا عازلا خلف جدار، جدر تعلو تفصل بينها وبين الكون ونوره، تعلو يوما بعد يوم. تفرض على نفسها عزلة عن أقرب المحبين لها، تنكمش وتنسى من هي، حينها تستشعر نواتها الخطر، تلتقط طرف الخيط ذبذبة الخطر فينجذب الخيط من طرفه الآخر المشدود بيد تراقب وترعى، فتختلف بعدها روحها وإذا بها تُبعث من جديد.

ابنتي سارة وأمي فاطمة وجدتي زهيرة، ثلاث نسوة في حياتي نتشاطر قوة روحية، تحرك الجبال لكنها لا تحركنا نحو قلب رجل لا نهواه، تحكي كل منا قصة تروي أجيالا بعدها، داخل كل منا امرأة هي تلك المرأة التي تهفو لها قلوب الشعراء والكتاب، ليحكوا عنها ويرووا سيرتها ويتندروا بها، لا ليحبوها ويسعدوها، امرأة يخافها الرجال. امرأة تمتلك كل القوة وكل الضعف وكل الفقر، فقر وحزن لا يعرف قدره سوانا، شروخ في الروح، وزفرات حارة كزفرات المراجل، ليل يطول وصبح مؤرق، صدر موجوع ممتلئ بالذكريات ينز همًّا.

أسكن إلى جوار أمي، وتعيش معها جدتي في نفس البيت منذ سنوات طويلة ورغم القرب المكاني إلا أنني لا أذهب إليهن إلا مرة في الأسبوع، ونادرا ما أبيت خارج بيتي، الأولاد يذهبون كل يوم للغداء، وامتصاص بعض مشاعر الأمومة التي أعجز أحيانا عن إفرازها، يجف ضرعي من الشقاء فأفقد بعض نضارتي وأمومتي، وأنسى أن دور الأب الحامي منوط بشخص آخر نسيه أيضا ورحل.. في أيام وحدتي الأولي كنت أخاف الظلام، كنت لا أستطيع النوم في البيت الذي يحمل أنفاسي وحدي، غفوات متقطعة ألتقطها يتخللها أرق متصل.

أجمع بعض حبات التوت من الطريق لأطعمها عصفورتيّ الملونتين في مطبخي الصغير.. اشتريت لهما قفصا ملونا وزينته بالشرائط الملونة والزهور الورقية..

بيت أمي إلى جوار مدرسة الأولاد، اخترت هذه المدرسة لهذا السبب، جدتي ما زالت حاضرة الذهن. تحكي لأبنائي الحكايا والقصص والعبر.. ربما تعملوا منها الحكمة التي افتقدتها، كنت دائما أرقد في حجرها تعبث بشعري، وتحكي لي وأستمع لها صامتة، وكانت تغضب وتظن أنني أنام ولا أهتم لها، لا تعلم أنني أغمض عيني فوق حكاياها حتى تتغلغل في روحي، لم تلمني يوما أو تتهمني أنني لم أتعلم منها شيئا، لكنها ترى تعاستي وتصمت.

في بيت أمي تركت بعض أثاثي، سرير لي ودولاب وبعض أواني المطبخ، فاضت عن حاجتي، وما حاجتي إليها وأنا أعود من عملي آخر النهار متعبة، ترسل لي أمي بعض الطعام المميز برائحتها ورائحة صبر جدتي، فآكله في سريري وأنام، قبل أن يعود هشام إلى البيت، يبحث له عن طعام، إن لم يكن قد تناول عشاءه في بيت أمه القريب من عمله، يدخل إلى البيت ويجلس مع الأولاد، وربما حاول إيقاظي مرات فأرفض.

قبل أن أصل لذلك اليوم الذي جمعت فيه كل ما يذكرني بزوجي هشام، في كيس بلاستيكي أسود كبير.. أكبر قياس.. ألقيت فيه كل ملابسه وعطوره وجواربه ربطات عنقه، ذات الألوان المحايدة الباهتة، وأدوات الحلاقة وألبومات الصور الفوتوغرافية، وخطاباته القديمة، وحتى أقلامه التي جف حبرها ويصر على أن يحتفظ بها، وأحذيته.. أدوات الكهرباء التي لا يستخدمها وأدوات الصيد الملقاة بإهمال فوق الدولاب، وكاميراته الرقمية ودبابيس قمصانه، كل شيء في بيتي قد يذكرني به، جمعته وسكبت فوقه زجاجات الشامبو ثم زجاجات الكاتشاب والمسطردة ثم البهارات والتوابل والفلفل الحار.. ثم زجاجات الزيت والصابون السائل ذات الرائحة.. أغلقت الكيس بإحكام وأرسلته إليه.

خرجت إلى الطريق، تقودني خطواتي المضطربة إلى المزيد من السير.. أمشي إلى جوار الرصيف، أدفع بالأرض أسفل حذائي، وتلكزني الأرض في قدمي.

لو لم تكن تلك عداوة فلم تعاندني!!

إصبع قدمي اليمنى الصغير البارز يحتك بالرصيف ويتألم، الحذاء القماشي لم يحمه، باطن قدمي المسطح ورثته ضمن ما ورثت عن أمي، شعري المجعد كأنه شعرها، عيناي كانتا مضرب الأمثال في صباي كعينيها، بنيتين غائرتي الإحساس عميقتين، كعيون فنجان القهوة الذي لم يقرأه الغجر بعد، كما تقول أمي، يخيل إليك أن موجا كموج البحر فيهما.

اليوم وأنا على عتبات الأربعين، رموشهما تقصفت، وخف الحاجبان، هل فقد الموج فيهما قوته وانكسر بالشاطئ؟! تومض فيهما نظرة ما تلبث أن تنطفئ، لتعاود الوميض بعد أشهر وربما سنوات.. هل يمكنني التشبث بلحظة وميض!

السيارات العابرة تتمهل إلى جواري، بداخلها رجل ينتظر إشارتي ليفتح لي بابا، أنظر إليه بلوم فيبتعد، شاب يقترب من ظهري، وما إن رآني أربعينية متوسطة الجمال شاردة الذهن حتى تردد وابتعد..

أبكي بوجه صامت، أبكي للداخل كما تفعل أمي وجدتي، البكاء عار؟! سألت جدتي.

قالت: البكاء عورة.. أغلقي عليك الباب.

تؤلمني معدتي، الآلام تقتحمها. كلما حزنت ازدادت تقلصا ما ذنب معدتي! ازددت ضغطا عليها بقبضتي المكورة، إلى أين أذهب؟!

أجلس في سيارة أجرة كبيرة إلى جوار النافذة، تجلس إلى جواري سيدة مسنة، تنظر إليّ برثاء، تنبعث منها رائحة الكلور والمنظفات، رثة الثياب جلبابها الأسود مغبر مهترئ الأطراف، عيناها ثابتتان، وفمها مغلق فوق الحكايا، تلصق ركبتها بركبتي، في محاولة منها لمواساتي، في صمت ترسل عبر ركبتها دفئا، لما رأت دموعي تنهمر وأنا أنظر للخارج للطريق، الهواء يملأ أنفي وصدري، أشهق فأستريح، وددت لو أبقى جالسة هكذا إلى جوارها، ركبتي بركبتها إلى الأبد.. أود لو أختلي بنفسي أحادثها وأستمع إليها لأعرف ماذا حدث....

مها

أكره رائحة الدخان التي تنبعث من فمي حين أتحدث عنك..

أين ذهب ما يحدث بين أي اثنين متحابين يتزوجان، دهشة التعارف، وعذوبة الحب، شقاوة الحكايات، ودهشة الاختلاف...

من أين بدأنا؟! التخرج في الجامعة والبحث عن عمل.. تلك الذكريات، كبحر مالح بلا شاطئ، بلا صوت أمواج، ولا نسمات برودة فقط رذاذ مالح، كلما رفعت يدي لأمسحه بقي الملح عالقا في حلقي.

عشرون عاما كنت فيها زوجة هشام وحبيبته، وأم أبنائه، واليوم أسعى للطلاق بكل إرادتي، خاتم زفافي كان بذات الكيس الذي جمعت به متعلقات زوجي.

مشهد أخير بيننا يمحو كل ما مر من صور سعيدة، أفراح وضحكات، لحظات تشاركناها. بناء بنيناه تصدع فوق رأسي وحدي، حصاد عمري اشتعل. أصبح هشيما تذروه الرياح. أصبحت أقلب كفي على عمر أنفقته فيها.

ميلاد أبنائي.. أعياد، حفلات مدرسية، زهور عيد الأم، سفرات، شواطئ... محن تشاركناها وأفراح، كلها مرت ببالي كذكري شاردة ألقيتها في الكيس أيضا. كنت أرى كمال أسرتي أن تظل مجتمعة. أجمعهم للصور وأناديهم لنبتسم، وتظل ابتسامتهم معلقة لحظات، حتي يلتقطها الفلاش، وأنا أبتسم بزهو، كنت أتعمد أن أطيل تلك اللحظات، لأتأملهم من بعيد يبتسمون.

عائلتي أبنائي الثلاثة سارة وأحمد وعلي، أيّ نعمة مباركة أُسبغت علي، أيّ صنع جميل فعلت فأنعمت السماء علي برضاها ووهبتني زوجي المحب وأبنائي.

مجلس جمع بيني وبين عائلة زوجي، وزوجي بينهم، فريق كامل متحد على كلمة واحدة، أمامي أنا كخصم لهم.. في بيتهم..

كانت نهاراتي قبل هذا اليوم عادية، تجري وفق إيقاع رتيب، أمضي معظم أوقاتي برفقة أسرتي وأمي وجدتي، وذكريات أوقف تدفقها بسد منيع، حتى لا تعكر علي صفو يومي، عزلة تضرب أعماق نفسي، تتصدع الأعماق يوما بعد يوم، والسطح ساكن لا يبدو عليه أثر.

أمي وجدتي كالجبال الرواسي، لولاهما لانتهت حياتي الزوجية منذ سنواتها الأولى. عصافيري في القفص الملون، رفيقة وحدتي، وصورة من صور الخلاص من كآبات عزلتي، ليس من الإنصاف أن يلح علي هشام أن أتخلص منها، أصواتها تكسر حدة الصمت في الصباح.

جدتي كانت تحكي لي سيرتها في بيتها القديم وهي تربي الحمام الزغاليل، وتطعمه بيديها، تملأ المسقاة بالمياه، وتنثر الحب حولها ليدور الحمام في ظلها، تقلد جدتي هديل الحمام، تهتز حنجرتها، صوتها أعذب من صوت الحمام نفسه، وتبدأ بسرد الحكايا عن حياتها، كنت ألتقط شذرات من زمنها، وببطء ترسم لي ملامح حزنها القديم، وكيف نبت شجرة عتيقة الجذر والخصر، واهنة الفرع.

صباح ذلك اليوم، استيقظت فجرا، لا أدري لماذا كنت أشعر بثقل فوق صدري وخدر في أطرافي، وفقدان تركيز، حاولت إصلاح تشابك أسلاك سماعة الهاتف فازدادت تشابكا، كنت أصلي الصبح، وأبتهل إلى الله، وأقسم عليه أن يفرج كربي، ويقف معي في محنتي، كنت على يقين دائما أن الله يسمعني، وأنه موجود.. هل تبدد يقيني؟!

كنت أناجيه وأوقن أنه سينقذني دائما، إلا هذه المرة، كنت أشعر أنني أقف وحدي، تعودت أن أرضى بقسمتي ونصيبي، تعودت أن أعيد تشكيل

واقعي لأرضى عنه، وكلما تشابك أعدته بالحيلة والصبر، إلا هذه المرة، فلم أجد حكمتي وحيلتي وصبري إلى جواري، وكأن الله قد تخلى عني، ربما لذنب اقترفته، وتركني في أرض عراء أصارع خوفي من ظلي وحدي!

كنت أسأل جدتي وأنا راقدة في حجرها:

- نينة.. أين الله؟

جدتي كانت تقول:

- انظري إلى السماء وأخبريني ماذا ترين؟

- أرى السماء الكبيرة الواسعة، عباءة سوداء مطرزة بالنجوم المضيئة..

- وماذا وراءها؟ ماذا خلف السماء؟

أين تذهب النجوم في الصباح؟ هل تختفي؟

- لا أرى سوى الظلام، ولا أعلم أين تختفي النجوم في الصباح.. أين الله؟

هكذا نستمر حتى نعدد سبع سماوات، وفراغات لا نراها ولا نرى خلفها، ثم نصل إلى السؤال نفسه، تمسك جدتي برأسي، وترفعها لأعلى.. وتشير إلى السماء بأصبعها المنحني...

- هناك لا بد من كامل.. يرى ويعلم.. الله كامل يتصف بكل صفات الكمال، التي يعجز عنها عقلنا العاجز.. كعيوننا العاجزة، محدودة النظر، هو أخبرنا أنه هناك.. لكن عيوننا لا تراه، يعلم ما لا نعلم، فاطلبي منه أن يكون معك، لأننا بغيره عقلنا الناقص هائم وغارق في الفراغ.

سألت جدتي:

- نينة لماذا دائما تقولين.. ما عاش مالي من بعد حالي؟

أسمعك تكررينها، وأنت تخرجين النقود من كيسك القماشي، المختبئ في صدرك، المعقود في ملابسك!

نينة هم حالي ومالي إخوة توأم؟

لا أعرف إن كانوا من الجن الصالحين الطيبين أم ملائكة، يأتوننا كل ليلة ونحن نائمين، لكن قيل لي في طفولتي، إن في بيتنا القديم بقريتنا روح طيبة، تترك لنا أشياء نجدها صباحا، نقود تحت الوسائد، وخبز أحيانا، وربما حلوى، أشياء بسيطة غير مبررة، كنت دوما أجدها إجابة جاهزة عن الكبار.

أن ملائكة البيت حاضرة ومنهم تأتي البركة.

وقت صلاة الفجر، تحركت بخفة، كي لا أوقظ الأولاد، كنت أبيت في فراشي وحدي، كان الماء باردا، وكنت أحتاجه كذلك، خيوط الصباح تتسلل إلى قلبي المرتعد من النافذة، وكنت أسابقها لأتمم صلاتي، كنت ساجدة أبكي.. وأردد دعاء جدتي:

"يا ودود يا ودود.. يا ذو العرش جيتك لبابك، تايبة يا ربي توبة كل عاصي قبلته ونظرت له..

عن أي شيء أتوب يا نينة؟ أنا لم أفعل شيئا يا نينة.

هل فعلتِ أنتِ شيئا؟ كنت دوما أسأل جدتي.

قالت:

– أتوب عن كل شيء، وأي شيء أذكره أو لا أذكره، أعلمه أو لا أعلمه.

سمعت صياحا في المطبخ.. لم أترك صلاتي.. يا ودود يا ودود.. سكتت الأصوات فجأة... انتهيت من صلاتي، وتسللت إلى المطبخ المظلم، بأقدام حافية مرتعشة.. فإذا بعصفورتي الزرقاء تقف مرتعدة، وفي قاع القفص يرقد ذكرها الأخضر..

هل قتلته؟!

هل دخل إليه وحش ما وافترسه؟!

هل أراح نفسه وقتلها؟!

لم أحتمل ارتعادتها، أيقنت أنها تحتضر، ألقيت بالقفص أمام الباب الخارجي، في عجلة، ودخلت مطبخ شقتي الصغير، كل ما فيه لا يبدو في مكانه الصحيح، كانت شمس الصباح قد حضرت، كاملة بهيبتها، بدا مطبخي مشعثا، أردت إعادة ترتيبه، وانتهيت إلى فرك البوتاجاز بدلا من ذلك، تنظيف الثلاجة ربما أشعرني ببعض التحسن، ساعات وأنا أعيد ما أفعل، وكلما انتهيت سكبت المزيد من الصابون لأبدأ من جديد... أنقذني انقطاع المياه.. ألقيت بنفسي فوق سريري، وأنا أرتعد، هل أصابتني عصفورتي بداء أو عدوى، ربما.

قبل ذهابي للعمل... في الطريق سقطت قلادتي، كانت خضراء، أحجارها زمردية مشغولة بالفضة، وقفت أبحث عنها لساعات، ووقف المارة يتساءلون عن قيمتها وهل كانت ثمينة!!

تمنيت لو أنني أملك الوقت الكافي، للبحث عنها لساعات أخرى، تحركت قدماي رغما عني، تاركة الطريق وقلادتي لمن يجدها، همست لنفسي لعلها كانت تحمل طاقة شريرة، أو طالعا سيئا، وتخلصت منه معها، كانت جدتي تقول ذلك.

في طريق عودتي من العمل، تعمدت أن ألقي نظرة ثانية في الطريق، حيث سقطت القلادة، وعبثا حاولت، سألت الباعة إن كان أحدهم قد وجدها، وينتظر مني مكافأة.. حاولت بلا جدوى..

كنت أجلس بينهم في بيتهم، بيت عائلة زوجي، أجلس في حضرة القضاة، أو من نصبوا أنفسهم ليكونوا قضاة، هكذا وحدي بلا محام، أو دفاع، هل عليّ أن أنطق باعتراف.. كل ما كنت أردد همسا.. البيت والأولاد يا هشام وأصمت، أنظر إليه وأكررها... ترى هل يسمعني؟!

بيت كبير متعدد الأبواب، لكل غرفة بابان، كلاهما يفتح على جهتين متقابلتين، السجاد مفروش من الحائط إلى الحائط، في عناد وكِبْر، تكاد لا ترى موضعا عاريا من الأرض، ألوان السجاد واضحة وصريحة، رائحته تشي بجهد صاحبة البيت في النظافة، الأثاث خشبي ضخم عتيق، لامع حتى في الزوايا، مروحة السقف المعدنية الكبيرة منظفة بعناية، معلق فيها خيط ملون، كلما دارت تشابك أكثر وأكثر حول محورها، يصدر أزيزا لا يسمعه سواى.

خلف كل باب ستارة شفيفة، وللنوافذ ستائر سميكة، رائحة الطعام والخبيز تملأ البيت، رائحة المرق تملأ الأنوف، سيدات البيت والخادمة فرغن من إعداد الطعام، وجلسن يحاسبنني، كانت معدتي ثائرة، وأشعر بالغثيان، وأراقب الساعة فوق رأسي، الأولاد متعبون من المدرسة ويجب أن أرحل.

كان الأولاد يأكلون في الغرفة المجاورة لحما ومرقا، وكنت أجلس في غرفة الصالون والأنوار مضاءة بالكامل، عكس عادتهم في هذا الوقت من منتصف النهار، العيون محدقة في وجهي، تكاد تخترقني بنظرات كالسهام المشتعلة، تنطلق فتخترق جوفي محدثة ثقبا في روحي ولهيبا في قلبي.

كان الجميع حاضرين كالمحاكمة، يجلسون متجاورين، في تأهب للانقضاض بألسنتهم على جسدي الهزيل المتعرق، وروحي الممتلئة بالخوف والحسرة، وأنت كنت بينهم يا هشام، وهم يتناوبون لومي وتقريعي، واتهامي وإهانتي.

لستُ زوجة صالحة ولا أما صالحة.. هكذا يقولون.. وأنت سمحت لهم.

هكذا يصرخون في وجهي.. هكذا رضيت أن يطلقوا غضبهم كالزيت الحارق في وجهي...

ترك أولادي طعامهم وأتوا إليّ، لم أكن أبكي، كنت ذاهلة أنظر إليك، وقلبي فارغ، فؤادي كان فارغا كفؤاد أم موسى، لكن الله لم يربط على قلبي مثلها، تركني لحالي ولهم.

أولادي يبكون وينظرون إليك، بانتظار إشارة لم تأت بالرحيل، انتظار من انقطعت حيلته، إلا من الرجاء والسراب، عيونهم معلقة بعينيك الغائبة، وروحك الهائمة، الشاردة في بلاد بعيدة، أو ربما الراقدة في قاع بئر جاف في صحراء قاحلة، ينتظر سيلا، أو طوفانا يملأه، أو وحشا ضاريا يخلصه.

كان هشام يعاني تدهورا عاما في صحته، وفقدان وزن وكآبة مستمرة..

يقيم في بيت أمه أسابيع ويتركني، وحيدة بأولادي.. كان بينهم يجلس بملابس البيت إلى جوار أمه، كانت تربت على ركبته وظهره.

ينظر إليّ بين كل جملة والتي تليها، ليرى أثر كلماتهم علي، وكلما هممت بالبكاء أمامهم، تذكرت جدتي وهي تحكي حكاية قهرها فأتماسك، بكيت للداخل فقط كانت الدموع تتساقط كنهر جارف في قلبي، تفيض وتمتلئ بها أضلعي.

تذكرت تلك المناسبات السعيدة، رصيد السنوات التي أخاف ضياعه، فأصمت، علهم يصمتون، حتى ارتفع صوت أبيه في وجهي، فأخذت حقيبتي ورحلت، ما إن أغلقت الباب خلفي وتركني أذهب، حتى أيقنت أن ما بيننا قد تبدد، ذهبت صورة الفارس النبيل إلى غير رجعة، ورأيت ما كانت تراه فيه أمي، شاب باهت الملامح، صبغته أسرته بصباغ أقوى منه، لا هو يحمل ختمهم، ولا هم تركوه لشأنه.

من خلف الباب كانت الألسنة ما زالت تلوك سيرتي..

يقولون المثل قال: "تكفي القدرة على فمها تطلع البنت لامها"

تربية النساء.. بيت بدون رجل، بيت بغير كبير نخاطبه..

يعيرونني ببيت أمي، وأسرتي المفككة.. هل من الشرف أن تعيّر ذا العاهة بعاهته؟!

تنظر لعورة أخيك وتشمت فيه، أو تدعو أن ينجيك الله منها في وجهه ويسمعك، تحرقه كلماتك وظنك أن الله فضلك عليه.. لا فرق.. لا نبل.. لا شرف في ذلك.

أردت أن أوفر دموعي لأيام تالية، علمت أنها ستلاحقني بلهيبها.. حاولت ولم أستطع..

هل مرت بخاطره تلك اللحظات.. هل يتذكر قسمه أمامي، ووعده لي، أن يحفظ كبريائي قبل أن يحفظ طعامي وكسوتي!

أقسمنا في ذلك اليوم، ونحن في غضاضة الياسمين، وتواعدنا ألا نفترق، وألا أكون لغيره، وأن أنتظره ولو كلفني هذا سنوات العمر..

سبقني يومها هشام بخطوتين، ونحن نسير فوق كوبري الجامعة، وترك كفه مفتوحة ويده ملقاة في الهواء تنتظر، نظرت إليه من بعيد، ورأيت فيه كل الأمن الذي طالما حلمت به، وكل السكينة التي أتمنى، سابقت خطواتي لألحق به ومددت إليه يدي لتستلقي في كفه بدعة ودلال.

هل كنت تدري أن كفك أول كف حملت يدي، واعتصرتها، تركت له أصابعي يقبلها، ويمسح بها وجهه وعينيه، وبكيت وأنا أحمل بقلبي كل هذا الحب، أخاف ألا يحتمل، أخاف أن تقتله الفرحة أو يقتله الحب.

كنت أنظر إليه وهو صامت، يترك لأبيه زمام أمره، بعد أن ألقى إليهم كلماته السحرية، أنني قد تخليت عنه، وأخذت إدارة أموالي، إرثي من أبي من بين يديه، وتركته مدينا عاريا...

نعم فعلت كل ما يتهمونني به وأكثر منه، فعلته حماية لأبنائي من سفه وطيش، تكبدت سنوات لأراه، وأعترف به.. شيكات بدون رصيد.. إيصالات أمانة.. مندوبي بنوك يطاردون هاتفي.. مستحقات وديون.. فواتير معلقة..

مرات ومرات أسوق قدمي للصاغة، أبيع ذهبي، ثم أتسلل لميراث أبي كنت أستيقظ صباحا، فلا أجده في البيت، ولا أجد فطورا، ولا ما أكمل به يوم أولادي..

لم ندفع إيجار الشقة لأشهر، اعتذر منا صاحب البيت، متعللا بحاجته المالية، ونفاد صبره، لملمت أثاثي وبعض كرامتي، ونحن نرحل عن بيتنا، الذي آوانا سنواتنا العشر الأخيرة.

ملابسي وألعاب أولادي، تسقط من بين يدي، وأنا أدور وسط صناديقي، التي رصها العمال بلا عناية، فوق سيارة نقل نصف فارغة، إلا من قلق أصحابها.

كانت أشيائي تسقط، فلا أقوى علي التقاطها، تسقط ويسقط مع كل منها قطعة من كبريائي وأمني، خرجت وفي يدي أواني المطبخ، وطفلي فوق ذراعي، يتشمم ابني الرضيع فزعي، يبكي بلا انقطاع، يضطرب نومه ومعدته لأيام تالية. تأملت صناديقي في البيت الجديد الضيق، فتحت بعضها، وتركت بعضها على حاله، مغلقة بإحكام فوق شك في أن تجد لها يوما مكانا في حياتي من جديد. وما حاجتي لكل ما فيها، وقد تركت بعضي أنا، في بيتي الأول، وتركت غفلتي وقلة حيلتي هناك.

سأعمل سكرتيرة وعاملة تليفون في شركة... هكذا أبلغته وانتهي الأمر.

لا جدال ولا مماطلة، تحتاج مساعدتي وأنا أستطيع، سنبدأ من جديد، وسننسى كل ما حدث.

نعم بدأت من جديد، بدأت وحدي ولكنني لم أنس ما حدث..

ثم أتى ذلك اليوم الذي أمسكت بهاتفك، وكان ملقى فوق السرير، كانت رسالتها إليك "حبيبي أين أنت"

كنت أصرخ كذئبة مات ولدها، كنت أدور حوله بالغرفة، وحول نفسي الملتاعة، والأولاد حولي يبكون، كنت أبحث عن مخرج، كروح حبيسة جسد ميت، تسللت الحياة منها بغدر، أبحث عن طريق فقدته، كالأعمى الذي فقد بصره للتو.

كان يهذي ويبكي، كالطفل المتلبس بسرقة الحلوى، يكذب وهي في فمه، وكلما اقترب مني ازداد صراخي، يرتطم صوتي بالحوائط، ويرتد إلي محملا بالمزيد من الأسى، ورائحة أطفالي وأيامنا معا.

تلك الألبومات التي ألقيت بها في الكيس البلاستيكي، كان بها صور لنا لم ألتقطها بعد، صور في مستقبل رأيته يوم التصق كفي بكفك، صورة لنا معا ونحن كهلان، نجلس على الشاطئ، وصورة لي وأنا أموت، في لحظاتي الأخيرة، وأنت إلى جواري، ملامحي مطمئنة، ورأسي ساكن في صدرك.

صور تحمل من الماضي نسمات لن أندم عليها، صورتي وأنا ألد سارة، وأنت إلى جواري، صورتي وأنا مصابة بالدوار والوهن أتقيأ، كنت تمسكني ولا تشمئز، تحتضن خاصرتي وتعتذر لي وتربت على بطني.

صورة ثلاثتنا أنا وأنت وسارة، ذاهبون ليومها الدراسي الأول، وأنا أبكي وسارة تبكي، وأنت تضم كلتانا، وتقبل سارة في وجنتيها، وتمسك بيدي.

صورتك مع سارة، وأنت تطلق طائرتها الورقية الأولى، وهي تصرخ وتصفق، وتنادي الطائرة، صورتك وأنت تحملها فوق كتفيك، وتجري علي الشاطئ، تلهث سارة من الضحك، وتقع أنت وهي والطائرة فوق الرمال الساخنة، وتغمركم مياه البحر، وأنا أنتظركما بالمناشف المبتلة بالرمال،

أنتظركما والفريسكا في يدي، أنظر إليك وأنتظر دوري، دوري لتحملني في البيت مثل سارة، وتدور بي وتلقي بي فوق الوسائد لأنام شبعة راضية.

متى ملت راحتيك خصري، متي نسيت كفي التقاط يدك، لا أذكر!

ما زلت أنتظر، أنتظرك لتلتقط أصابعي، وتمررها فوق وجهك،

أنتظرك لتقول لي:

أقسم أن ما حدث لم يحدث.. وسوف أصدقك.

وها أنا في السيارة، إلى جوار السيدة، التي تنبعث منها رائحة الكلور والمنظفات، بينما تنبعث مني رائحة الحزن، والجرح الطازج.

تنظر المرأة إلي، وكأنما اخترقت حُجب روحي التي تحتضر:

"لماذا تبكين بلا صوت، كل شيء سيصبح بخير!!"

حقا هل سيصبح أي شيء بخير بعد هذا اليوم؟!!"

تقودني قدماي إليك يا ممدوح، زميلي في العمل، يصغرني بعشر سنوات، لطالما تعمد أن يضع نفسه في طريقي، ويفتعل المصادفات، ويخلق المناسبات ليكون بقربي. يقول: لا أريد منك شيئا، فقط أن نبقى أصدقاء.

لماذا أذهب إليك الآن يا ممدوح، بوجه ممتلئ بالمساحيق وروح مهشمة؟

كمن وضعت للتو وليدا مشوها، جراحها تنزف، وجسدها مبعثر..

وأحكي لك ما حدث..

لا تخافي يا مها أنا إلى جوارك..

ويمسك بأصابعي، تلك الأصابع التي يملكها هشام بورقة شرعية، ذكر فيها اسم الله وسنة نبيه ومذهب الإمام. صك كصكوك الرق التزمت به وحدي، وهل تُلزم الصكوك السادة!

إنما تكتب الصكوك للعبيد... أتراجع خطوات ويدي ترتعش، أسحبها من بين أصابع ممدوح، وأسكنها يدي الأخرى علها تهدأ، ينزعج ممدوح ويرحل.

لم تكن أسرتي ترقى لنسب تلك العائلة، ذات الصيت والمهابة والهالة الإيمانية، التي يحيطون أنفسهم بها، كأشراف يمتد نسبهم لآل البيت، عن أي بيت يتحدثون؟! لم أكن أدري.. ولكنهم هم الأشراف ينتقون لنسبهم، واختيارهم لي شرف، يجب أن أكون ممتنة له، راضية وشاكرة، وأسعد به فيما بقي من عمري، فقط لموافقتهم على نسب أسرتي المفككة المبعثرة، التي لا تعرف أصول العائلات ذات النسب وتقاليدها وطقوسها، كنت منبهرة مشدوهة، أفتخر وأزهو، وأخاف أن تفسد فرحتي الفرحة.

قالت أمي: لا.. لا تفعلي..

قلت لها: إنه ليس كأبي، وأنا لست مثلك.. أنا امرأة كاملة.. أنا أحب.. أنا أعرف كيف أحب.. أحبه بكل جوارحي.. ويحبني وسيسعدني بقربه.

قالت أمي: بحثتِ عن مثل أبيك، لا تفعلي.

قلت لها: لا تسقطي عليّ فشلك مع أبي، أبي طيب القلب حنون، وأنت قاسية لم تعرفي الحب، ولم تبذلي جهدا إليه.

صمتت أمي الأستاذة الجامعية، الدكتورة فاطمة، صمتت للأبد، وتركتني ألقي بنفسي إليه.

وقت خطبتي كان أبي متهللا مستبشرا، سعيدا بالنسب والصيت.

يحكي لكل من يلقاه عن أنسبائه الأشراف، وشجرة عائلتهم المتصلة الموثقة، كان سعيدا أنهم لم يسألوه أين كان طيلة سنوات شبابي!

كان يلقى والد زوجي بالترحاب والحبور المبالغ فيه، وكنت أحزن في أعماقي وأشعر أنني سأدفع ثمن هذا لاحقا.

كنت أرى في عيونهم فرح الانتصار علي مبكرا، شجرة عائلتهم المباركة كان علي تذكرها وتكرارها، لأحظى بمباركة رأس العائلة وابتسامته، كنت

أحبه، أحب الشيب في رأسه والوقار، أحب هيمنته على الجميع، ورعايته للجميع..

وكنت أبغض سلطانه على هشام.

كان هشام يجلس بين يديه كفرخ صغير ضئيل، وكان هذا يؤلمني، انتظرت أعواما لأدرك أن الفرخ لن يكبر، ولن ينمو له ريش، وسيظل قابعا في جلباب أبيه مستمتعا بأمنه، منتفعا بظله.

يقولون إن الإنسان لديه قدر ثابت من الحب والعطاء، لنفسه والآخرين، إن وهبت نفسك النصف من طاقتك، ووهبت الآخرين النصف تكون عادلا، وإن ضننت على نفسك ووهبت الآخرين كل ما تملك، فلا تنتظر منهم سوى النكران، فهل أحببت نفسي بما يكفي لأحب هشام؟!

لم أكن أعي كثيرا مما يقولون، كنت أعجب من آرائهم، ولما صرت أرى من الدنيا أشياء كانوا يرونها ويعرفونها، تعجبت لنفسي إذ كيف كنت بهذا الجمال وأنا لا أدري!! ترى من يعيد إلي نقائي الذى جذبهم إليّ؟!

كيف نرى أنفسنا، ملامحنا... هل نرى ما تراه عيون الآخرين!

أم نرى وجها آخر لنا، ربما أصغر، أجمل، أقبح. يراودني هاجس دائما، أنني لم أعرفني بما يكفي حتي اليوم. لم أعرف صورتي، صوتي، لم أعرف أنني حينما أغضب أرى وحشا، وحينما ألهو أرى طفلا.

أعرف أنني لم أدرك من أنوثتي، سوى عينين بعمق البحر، بلون أعمق ظلمة فيه، أعرف أنني لم أدرك من أمومتي، سوى أنف يميز رائحة عرق أبنائي في المرض، عن عرقهم في الحزن، كيف أعرفني إن كنت أنظر في عيونكم بدلا من عيني.

كل شريف منهم كان يحمل توجيها خاصا به كان نصه:

"أخي الشريف إنك بانتسابك إلى عائلتنا ذات الهيبة والنورانية الدينية لا تتميز بهذا على سائر الناس، وإنما هو شرف تزينه تقوى الله سبحانه. الداخل فينا بغير نسب والخارج منا بغير سبب ملعونان.

فمن يكذب علينا ويقول إنه منا وهو ليس يلعنه الله، ومن قال إنني لست منكم متبرئا منا يلعنه الله أيضا"

ما معني أنهم هم الأشراف؟! وهل معنى ذلك أن غيرهم ليسوا أشرافا؟

كان حماي رجل هيبة ووقار، جلباب أبيض، وعصا غليظة يستند إليها رغم وفرة صحته، زيوت عطرية في كفه وملابسه، تبقى في أرجاء غرفته يوما كاملا، دخل لا بأس به يوفر له حياة كريمة، كبير عائلته، جميل الوجه رغم الشيب، لحية بيضاء مهذبة، وأصابع غليظة وجسد مترع بحب الحياة.

كان يُعلم أبناءه ومريديه حكما، أن الإنسان الذي يعامل ربه وليس البشر تصبح حياته ومماته لله، يصبح ربانيا وإن كان بائع خضرة أو متسول..

ومن يعامل الخلق بخُلقهم ويحب الدنيا ويغرق فيها، يصبح دنيويا، وإن كان رجل دين قائم نائم في المساجد.

أنبهر بكلماته، وأتمنى في أعماقي لو كان هو أبي، تلقفني يوم زفافي بالوصايا، وقبلت يديه، كنت أجد فيهما أمنا أبحث عنه.

كان في مجلس العائلة يحاكمني، ويرفض انتسابي لعائلته الشريفة، حكم عليّ أنني خرجت عن طاعة زوجي، نسي أنه أيضا ليس ربانيا، نسي الأموال التي تأتيه قُربى لله، وغسلا لذنوب كان يكفي صاحبها الاستغفار...

تلقى بين يديه الهدايا والهبات، كان يدير دارا للأيتام ومدرسة، وكنت في بيتهم أجلس بين يديه، كأيتام مدرسته، بلا أب يحميني، ولا كبير ولا ظهير، ولا سند يدفعهم عني، رحمك الله يا أبي، ما كنت لتفعل شيئا لو كنت حيا.

ما زلت أذكر صوتا ما في أعماقي يتردد، صوت أحمق!

كان يخبرني دوما، أن الأقدار تعد لي شيئا عظيما، أو تُعدني لشيء أعظم!

لم أكن أدري أنني أسير بخطوات ثابتة... نحو لا شيء!!

أولى تجاربي في الرفض، كانت في سنوات الدراسة الغضة، بدأت في منتصف اليوم الدراسي، وقت الفسحة، أو وقت الطعام.

كنت الشخصية الصامتة المتأملة، التي بلا أعداء ولا أصدقاء، ما جعلني مطمعا لتجارب الفتيات الأكثر خبرة، وتطوعت إحداهن بإدخالي في مغامرة، لتحريك الماء الراكد، ربما تنقذني من هذا النمط، الذي اخترته لنفسي، أو قدَر علي.

القالب الصامت، الذي فرضته علي طفولتي كابنة وحيدة، لأم عانت كثيرا حتى تمردت على قالبها وقدرها.

كانت أمها أما ريفية، شكلتها بعقل الريف وخوفه وحرصه وضلالاته، وحيدة في القاهرة، تربي خمسة أبناء وحدها، وكانت أمي لحظها إحدى الناجين من تلك المأساة، وإن نجت ظاهريا فقط.

مرشدتي نحو المغامرة.. هند كانت أقرب لفتيات السينما، تمتلك رشاقة الأحرف، وضحكة رنانة يسمعها حارس البوابة فيهفو قلبه، لأيام الشقاوة وجموح الشباب.. وكانت التجربة...

أسرع فتاة في خطف ساندوتش، من بين أيدي بنات السنة الثالثة، وتفادي وقوعه على الأرض أثناء الجري، وتفادي أية ضربات انتقامية باليد متوقعة، وربما شد الشعر أو اللكمات، ولا تستهين بكيد البنات الغاضبات، وما قد يفعلن..

وقبلت المنافسة وأصبحت محترفة بعد أيام، مثل عصابات السلب والنهب المنظمة، وأعددت كل شيء وفق خطة ونظام، ونقطة مراقبة ونقطة انطلاق، حركة أولى بخفة وتمهل، ثم التوجه نحو الهدف الغافل ببطء، ثم انقضاض بسرعة مناسبة، ثم التقاط الهدف والعدو السريع، ثم الاختفاء وسط مجموعة مغلقة من الفتيات الغافلات أيضا.

وأعجبتني المغامرة، رغم أن معي طعامي، تعده جدتي، ويفيض عن شهيتي المغلقة دائما، إلا للحلوى والجبن، وأصبحت المغامرة هدفي، ألتقط ما أريد، وأعطيه مع طعامي للأخريات...

ثم أضفت عاملا خاصا بي، وهو التفاعل الإنساني مع الضحية، مراضاة الفتاة المنهوب أكلها، بابتسامة وضحك، خاصة أن صديقتي الأولي ذات الشعبية والصيت، لو وقع لي مكروه ما كانت لتنقذني، هي يحميها طيشها وحب من حولها، وضحكتها الرنانة ستنقذها، أما أنا فلا.. كنت أعرف قدري عند الآخرين.

بضعة أيام فقط لأثبت لهم أن الصمت يحمل من القدرة والغضب ما يكفي.. وقد يفيض، بضعة أيام جعلت لي بين الرفيقات قدرا من المهابة يكفيني، حتى نهاية العام الدراسي.

مبكرا في طفولتي عرفت الله، وعرفت طريقي إليه، أناجيه من النافذة لساعات في ليالي اكتمال القمر.. ربما لظني أنه هكذا سيراني أفضل..

كنت أرقد في فراشي، وأنا أكمل حديثي إليه، حدثته عن غضبي المبكر من أبي حين رحل عنا لسنوات، هاربا من أمي، وترك أمي وحدها..

كان يقطن بالشارع المجاور لنا، وكنا نراه كل يوم، لكنني أبدا لم أشعر أنه بيننا، وكأن شيئا ما قد تغير منذ رحل وأخذ ملابسه، كنت أنظر للسماء وأحدثها عن بكاء أمي وعن شرودها، كنت أخبرها أنني أكرهها..

هي التي حرمتني من أبي، لأنها لم تعرف كيف تجعله يحبها، وأخبرها أنني أريد أن أنجب ابنة جميلة، أسميها سارة، وأنني سأحب ابنتي، وسأحب أباها..

كنت أدعوه أن يعيد أبي لأمي، هكذا عرفت الله وتوطدت علاقتي به، كانت انتصاراتي الصغيرة تقوي وصالي به، كنت كلما حل بي مكروه، أو ضاق بي حال أغلق غرفتي، وأصلي لساعات متصلة.

أضع خدي علي الأرض، وأبتهل لله أن ينقذني، في مرات كثيرة، كنت أرى الله يتدخل بالمعجزات، وكأنما ولي أمر قد أتى على عجل.

إحدى المرات دعوته أن ينقذني من فضيحة مدوية، كادت أن تعصف بي في المدرسة، بعد أن كتبت في ورقة صغيرة، وردية معطرة لطارق أني أحبه، طارق حلم كل فتيات المدرسة، ورأى طارق الورقة وكرمشها ووضعها بجيبه وهو يركب سيارته، بعد أن اصطحب أخته لمياء من المدرسة، كنت أكره أخته، لديها كل ما لا أملك، الأب، والأخ، والمال والجمال.

صليت ودعوت الله ألا يفضحني طارق، وجاء اليوم التالي، ووقفت أمامه مرتعدة، أنتظر عقابي من الله على فعلتي، وأتت لمياء ببلاهتها المعهودة، ولم يبد عليها أنها قد علمت منه شيئا، ودخلت هي بوابة المدرسة، وأنا أقف بجوار البوابة مسمّرة، أنظر إلى الأرض صامتة، فإذا بطارق يكرمش ورقة ويضعها بيدي بها رقم هاتفه..

وبكيت كثيرا وأنا أمسك بالورقة، ولم أتصل به أبدا، وقطعت علاقتي الباهتة بأخته لمياء، وأصبحت أخرج إلى البوابة، بعد أن تخلو المدرسة إلا مني.

هكذا كنت أجعل الله طرفا في أي لحظة انكسار أو هزيمة، أحياها ويحياها معي، كنت أحدث نفسي أنه إلى جواري، طالما بقيت طاهرة نقية، هو الذي وافق على محنتي، وارتضاها لي، إذن لن يرى مني إلا ما يرضيه، كنت أكتب

اسم الله في أوراقي ألف مرة، كلما هممت بمعصية وكلما فعلت معصية، كنت أكتب خطابات طويلة إلى الله، أحدثه عن أمنياتي وأحلامي التي يعرفها جيدا، ولكنني أكتبها كي لا أنساها أنا، كنت أكتب اعتذاراتي وندمي عن أخطائي التي وقعت فيها، كنت أدعو الله ليل نهار ألا أصبح مثل أمي.

أمي فاطمة الأستاذة الجامعية، النابهة ريفية اللسان، تعدو في كل اتجاه أيضا لتثبت لأحد ما.. شيئا ما..

أبحاث وسفرات عمل.. مناقشات أكاديمية جدلية.. عدة رسائل دكتوراه.. ترقيات متتالية.. ضغائن ممن حولها من منافسين أو حاقدين.. أعداء نجاحها كانوا كثيرين... صراعات حول مناصب شرفية... شهادات تقدير وشكر معلقة فوق الحائط إلى جوار صورة جدي.. كانت صورة جدي في الصالون أمام المدخل مباشرة.. صورة كبيرة ببرواز مذهب رفيع، صورة لفلاح يرتدي قفطان الأثرياء في عينيه خمول، وفي يده مسبحة.

فاطمة

حين تركت يد أمي أول الطريق، وحملت الحقيبة، كانت حقيبتي جلدية وبنية وتعجبني، تملأها أمي بالحلوى لتسعدني، رائحة الحقيبة كرائحة أمي دافئة، أتساءل أين الله!

تنهرني أمي...

أسير بتردد نحو البوابة الحديدية للمدرسة، صرير البوابة يزعجني، مفصل البوابة يحمل رائحة دماء أصبع عُمر، حين مال بكتفه الصغيرة أول العام، وأدخل يده ليفتح لنا الباب، معلمتي قاسية الملامح، تصر أن أعيد كتابة الدرس خمس مرات، أترك سطرا، تعاقبني بالمزيد...

أسألها أين الله!

فتعاقبني بالمزيد...

نسير فوق شريط السكة الحديدية الملتهبة، يؤلمني حذائي، تلتهمني أيدي عابرة، تدفعني لأُسرع بالمسير، قدمي الصغيرة تنغرز بالسطح الساخن، تتعلم خطوات الطريق، أنا وأخي الكبير مصطفى ننتظر عودة أمي زُهيرة بالنافذة، وننادي: أمي، يسمعنا الجيران، يشفقون علينا، يرسلون لنا الحلوى، لا أريد حلوى أريد طعاما... يصرخ مصطفي أعطي الحلوى لإخوتي، يرسل الجيران طعاما، يعطيه مصطفى لإخوتي.

نلهو بأقلام الألوان فوق الجدران، نملك أربعة جدران، بيتنا غرفة واحدة، ما استطاعت أمي أن تؤمنه لنا بعد أن تركنا بيت خالي، كنت أظن أنني سأغني للأبد، قالت أمي لقد كبرت، صوتك عورة، لا تغني على الملأ... عيب، بنات الناس لا يرفعون صوتهن، لا بالغناء ولا بالنحيب، ولا تنادي إخوتك في الشارع فقط اصمتي... اصمتي.

ماذا فعلت فيّ يا أمي! ماذا فعلت في حنجرتي تغير صوتي، من الصمت الطويل تحشرج، نبتت حوله الأشواك، لم يبق ذلك الصوت الناعم الرخيم، وبقيت صامتة حتى خرجت الكلمات صراخا.

كنت أتضاءل بينما خالي يصرخ بوجه أمي، يلح في ذهني سؤال: لماذا تموت قطتي؟ كنت أكرهها أحيانا، لكنني لم أتمنَّ لها الموت، أنظر للسماء أرجوها أن تعيد أبي إلي..

لماذا يتأخر المطر؟ كنت أسأل أمي المنشغلة برتق أثوابنا، وجوارب أبناء خالي، كانت تقول: كله بأوانه وأمره.

منذ أن تركنا بيت خالي تغيرت حياتنا، أصبحت المدرسة بعيدة، أمشي فوق شريط السكة الحديدي، لساعة حتى أصل، يسير إلى جواري مصطفى، لا نملك ثمن الركوب. يحكي لي مصطفى في الطريق عن عمله وتعبه وشقائه، لم يكن يتحدث كثيرا عندما كنا في بيت خالي، كان دائما غاضبا يضرب إخوتي، صامت مهموم، خارج البيت دائما.

أمي تعمل في المستوصف، أمي تخاف أن يعلم خالي ويجبرها على العودة لبيته، أمي تتعب كثيرا، ومصطفى يتعب أكثر.

عندما تعود منهكة من عملها قبل أذان المغرب، تقول أن البيت ملائكته حاضرة فلا تزعجوها، مستجيرون بآل البيت مثلنا، لا تفجعوها، أرواح طيبة في حالها ونحن في حالنا.

وهل تكفي الغرفة كل هذا الحشد يا أمي؟ كنت أسألها.

كان مصطفى يردد.. يسخر منا ويضحك..

كومة من اللحم نرقد فوق بعضنا نستضيف أرواح الجن معنا؟!

كانت أمي تغضب، وتضرب مصطفى فوق فمه ليصمت، وتقول كلنا ضيوف مسافرون لم يحن وقتنا بعد.

صداقة عجيبة ابتكرتها أمي، وربما صدقتها، وجدت فيها ضالتها، صداقة أنشأتها المصادفة والاحتياج.

كانت من البداية تعلم أن الغرفة الرخيصة، في الحي المجاور للسيدة نفيسة أقل ثمنا مما ينبغي لها. وحتى حينما راودها الطمع في السمسار، وساومته مثبتة قولها عند نصف ما نطق به، متوقعة أن ينصرف غاضبا، وافق بسرعة أخافتها من الغرفة أكثر، وأشعرتها أن بها خطبا ما، لكن السمسار عاد ليطمئنها إنها إلى جوار السيدة نفيسة، ومن يجاور آل البيت لا يضام.

وهكذا وحولها أولادها الخمسة سكنت الغرفة، وسكن قلبها شيء من التوجس.

نامت وحولها أبناؤها، في غرفة أثاثها مراتب قطنية رقيقة، فوق حصير مفروش على الأرض، وصندوق خشبي كبير متشقق الألواح، يبدو كصناديق الفاكهة التي في أسواق الجملة، وصندوق صغير حملناه معنا، تنحشر فيه كل أغراضنا، مثل حشرتنا في غرفتنا، ملابسنا وملابس إخوتي، وأوراق أمي وبعض حُليها، في كيسها المخملي الأسود، وبه بعض أغراض أبي، جلبابه وقفطانه المطويان، بداخلهما سبحه الكثيرة، تلك التي كانت دائما بين يديه، بعض زجاجاته حملتها أمي معها لتذكرها به.

يدخل الهواء وروائح الطريق إلى الغرفة، من شباك وحيد خشبي، يطل على الشارع، الذي لا يهدأ لا ليل ولا نهار.

أمام المدخل طرقة صغيرة، يمينها مطبخ، يسع فردا واحدا يقف بالكاد، به موقد صغير.. الوابور، عين واحدة، تُملأ بالجاز، حين تهب رائحة الجاز المشتعل، كانت تلك الرائحة تعني للبطون الصغيرة الجائعة، أن الطعام الساخن قد اقترب من أيدينا، البطاطس المسلوقة، الأرز المطهو.. طعام بأنفاس أمي وخبزها.

بالمطبخ دولاب يسمونه نملية، ربما لأن خيوطا من النمل الأسود تسكنه، وشباك صغير قضبانه حديدية، مرتفع يطل على المنور، تشرق فيه شمس الشتاء، تسمع منه كل ما يحدث بغرف الجيران، إن رغبت وإن لم ترغب، وتؤنسك منه دجاجات السطح، وتسري وحدتك، إن أنصتَّ لتسبيحها ليلا، ويزعجك يقظتها ونشاطها صباحا.

الحمام لم يكن أفضل حالا، كان فتحة في الأرض، شق مستدير يغطى بغطاء خشبي، له يد خشبية بارزة، مثبتة بالمسامير الصدئة، غطاء مستدير، كالذي يغطي وجه أزيار المياه، في الشارع أمام الأضرحة، شق تلقى به مخلفات البطون على عجل في جلسة القرفصاء، كما في رسوم جدارن المعابد عند الفراعنة. إلى جوار يدك صنبور مياه، تتسرب منه المياه ليل نهار، نقطة نقطة، في إيقاع منتظم متناغم، كطبل خافت فوق سطح الماء، يدق... ويدق.. يمكنه التسرية عنك، إن طالت جلستك..

تسقط قطرات الماء في كوز بلاستيكي له يد، وفم طويل كخرطوم الفيل، أثقل من الكوز نفسه، دائما لا يتزن على الأرض الأسمنتية الرطبة، حفر لنفسه موضعا أسفل الصنبور، ليبقى دائما ممتلئا ربما يتزن.

بعد ليلتين وربما ثلاث، أدركت أمي سر سعر الغرفة المتدني، من أحاديث الجارات وهمهماتهن، وربما لمحت حركة ما أثناء الليل أو النهار.

الاحتياج يربطنا جميعا ببعضنا، ربما هم طيبون مرتبكون مثلنا، فهم يكرهون الغرباء مثلنا، ويكرهون الفضوليين، وربما يخافون مثلنا... هكذا كانت تقول أمي: الغرفة مسكونة من قبلنا بأصحاب الدار.

طالت ساعات صمتها أول ليلة، ثم تملكتها سكينة مفاجئة، وشعور بالتسليم المطلق، والذي حدث يوما بعد يوم أن كلا الفريقين ظل صامتا يريد

السلام، قدسية الاحتياج تؤلف بين الفريقين، وتمنحهما عهودا ومواثيق غليظة، قد لا يحظى بها أبناء البشر معا.

سألت أمي الدكاكين حول مسجد السيدة نفيسة، بعض العجائز، من يبعن البخور والعطارة، يملكن قراطيس سفوف لكل الأوجاع، وكنت معها، وكانت إحداهن تنظر إلي بكامل عينيها وتقول لأمي:

- احرصي عليها.. خفيفة النجم.

قالت إحداهن: اتركي لهم البيت.. هم عمّاره.

وقالت أخر: إن كان لهم أولاد فهم مثلهم مثلك.

الأبناء يعمرون الأماكن، ويحنون الظهر، ويخلقون تفاهما وتناغما لوحدة الهدف، تلد قطة السلم فتطعمها أمي، تقول: لا فرق بيني وبينها، صغارها جائعون. تطعمها لترضع صغارها، وتدفئ لها رقدتها وتقول: رقدتنا ستطول. تبيض الدجاجة فوق السطح في العشة، فتترك لها أمي البيضة، لا تذبح أمي الدجاج بيديها، وإنما تتركه لجارتنا تفعل ذلك. تقول: منذ مات أبوك لم أستطع ذبح دجاجة.. لا تقتلوا النمل الهائم حول النملية في المطبخ، فإنه يسير ويرحل، مسافر مثلنا. تترك حبات السكر في شباك المنور ليتسرب، ويذهب إليها مبتعدا.

في أيامنا الأولى، ظللنا نحدق في السقف ليلة كاملة، أنا ومصطفى، ولم نر شيئا، وكانت أمي نائمة بسلام، تحتضن إخوتنا، خطوات تتبعنا في حركتنا داخل الغرفة، نشعر بها لا تخرج معنا إلى الطريق، فقط داخل الغرفة، أمي تتفقد الأركان، وتترك فيها لقيمات جافة وتهمس فيها، لا تمتد يد إلى طعامنا وربما يبقى دافئا، إن اقترب أحد إخوتي من حافة الشباك عاد بدعة إلى الأرض، موقد الجاز لا يهب في وجه أمي، كما كان الحال في بيت خالي، إن نسيته مفتوحا، نقود أمي في صدرها دافئة لا تنقص، تترك أمي باب الحمام

مغلقا وتنظفه كل يوم، وتحتاط من الماء المغلي والزيت الحار، تحترم الجوار وتحترم الضيافة، السلام لا يحتاج إلى مواثيق مكتوبة.

في الأيام التالية لم نعد نستشعر الوحدة، تبين لي أن هناك الكثير من سوء التفاهم، بين عالم البشر والأرواح الطيبة، إنهم ينزعجون مثلنا ولذلك يهربون منا، لا ينامون وقلقون، وأنهم تعساء ووحيدون مثلنا، لأن الأصل في الكون الوحشة والفقد، والمسافات البعيدة بين الكواكب هي نفسها بين القلوب، لكن البشر مصرون على هتك كل مستور كامن في الكون، بالصياح فقط بالصياح البشر أصواتهم أعظم من أفعالهم.

أفقد طفولتي بينما تكتنز شفتي، وتستدير دوائري، كل يوم تخترقني دائرة، تتسع وتتقاطع مع سابقتها، شعري الأسود يزداد سوادا، تتناثر الدهون في وجهي، كان شتاء قارصا، ما زلت أرسم فوق الجدران، تركت لى أمي حائطا مخصصا لى، لماذا فعلت ذلك؟! كانت الجدران تُلهمني، فأرسم ما عجز الجدار الواحد أن يسع، أُقلب كتبي وأدرُس أقلب عيني في الجداران، كأنني أبحث عن شيء ما، كل الأحلام تبدو غضة كزهور الياسمين، تلك البيضاءُ ذات الرائحة الحلوة في طريقنا، لكن الياسمين لا تذيع خبرها قبل الأوان.

الشغف لا يأتي إليك دون أن تطارده، ذلك الوميض في عينيك، صراعك مع متناقضات الحياة، لهاث دائم وجوع لا يشبع، حياتك على الهامش لن تمنحك السعادة.

الإنسان كائن درامي، يحب التخبط، يبحث عن المنحنيات في حياته، يختلقها إن لم يجدها، فماذا إن وجدها وقد ولدت معه... وجد ضالته.

يأتي إلى الدنيا صارخا باكيا، يشكو وجوده، ويرحل عنها مودّعا بالبكاء والعويل من محبيه، وربما يؤجر ناحبين له قبل أن يموت، يحب أن تحزن الأرض عليه والسماء، والشجر والبحر، يحب أن يترك شيئا ما أو أثرا ما، إن

لم يكن هرما فطفلا أو كتابا، وربما ترك شرا أو لعنة تلحق بنسله.. لتحصل على الشغف عليك أن تخلقه، لا تنتظره.

أن تولد بموهبة ما، صوت أو جمال أو وعي سابق بما حولك، أو ربما أن تكلم الجن فيجيبونك، نِعمٌ تتمناها ولا تفكر في الثمن الذي يدفعه صاحبها كل يوم، وكيف يخفيها، الموهبة ألم وإزعاج، تريد أن تظهر، وتريد أن تُسمع ويراها الناس. الجمال لا يريد أن يختفي، الجميلة تختال بالمرايا، والصوت الجميل يؤرق صاحبه، يريد أن يُسمع، كذلك الوعي والإدراك السابق يعذب صاحبه، يسهر وينعزل ويفقد الأصدقاء، لا يضحك ملء قلبه، يعلم أن الظلام أصيل في الكون، وأن النور دخيل، يصمت ليختفي، وتتحقق توقعاته فيصيبه الحزن.

الموهبة كائنات حية، تخرج من رأس لا يملك إخضاعها، وهكذا كانت رأسي طوال سنوات حياتي... رأس فاطمة الصلب العنيد، مضرب الأمثال.

كنت فتاة متمردة متوسطة الجمال، أدرب نفسي علي الاستقلال وتذوق الحرية من آن لآخر، غير أن الأيام لم تكن لتمنحني تلك الفرصة طويلا.

كنت أذكي أخواتي، وأكثرهن فصاحة، ومهارة في اكتساب القلوب مكنتني من النجاة، كل شيء يمر بنا يشارك في بنائنا هكذا علمتني الأيام.

كنت في السابعة من عمري، لا أعرف معنى الموت، ولا معنى الحياة المنقوصة، ولكنني أحسست انكسارا وخيبة، حين عدت إلى الدار بعد ليلتين قضيتهما في دور الجيران، صرفتني أمي بعد أن عدت من بيت خالتي، وقبل أن أصل إلى عتبة الدار أرسلت أخي مصطفى، يصطحبني إلى دار جيراننا.

كان مصطفي يبكي وجهه محمر، وعيناه زائغتان، سألته ما بك يا مصطفي؟ وأين أمي وأين أبي؟

لم يجبني، وتركني وقلبي منقبض، بعد أن انتهت أيام العزاء، عدت إلى الدار، خيل إلى أن كل شيء في دارنا قد تغير، الدجاجات حزينة، صامتة لا تأكل، والريح بالباب تئن تريد الدخول، ورائحةٌ بالدار ثقيلة..

لا حزن مثل حزن الصغار، حدثتني أمي لما كبرت، أنني عفت الطعام كدجاجاتي، وصمت لأشهر، وتركت مراقبة العصافير فوق الأغصان، ومسامرة قطتي. كنت أسألها عن الموت، كلما اشتقت لأبي، وأتوسد فخذها فيهتز ببكائها، ويهتز رأسي معه.

أنصرف من رقدتي ووجهي مبلل بدموعها، أسألها لماذا مات أبي؟ وهل سيعود؟

فأسمع منها اسم القيامة.. القيامة، أطوي حسرتي، وأرقد إلى جوارها. في مرة قلت لأمي:

إنني أستيقظ في الليل فأرى أبي، يتجول في الدار صامتا، لا ينظر إلي ولا يكلمني، وأسمع طقطقات مسبحته، تتحرك حبة وراء حبة، كما تعود وهو يسبح ليلا على مهل، وأسمع صوت ماء الوضوء فجرا، كما كنت أسمعه وهو في الدار.

ضربت أمي صدرها بكلتا يديها، وتعوذت بالله واستجارت بالصالحين، بكل الأسماء التي تحفظها ولا أعرفها.

ومن يومها أصبحت أنام كل ليلة إلى جوارها، في فراشها الكبير المعدني المذهب، المرتفع عن الأرض ذراعا، أعادتني إلى فراش أبي، الذي شهد رقدته الأخيرة وغرفته الواسعة، التي تطل على الطريق من نافذة خشبية مرتفعة، ذات لوح راقد فوق دفتيها، فوق صدرها، لم يُرفع عنها مطلقا بعد رحيله.

أنام في فراش أبي كل ليلة، لكنني لم أعد أراه ثانية، ولم أسامحها على ذلك، ولم أعد أحكي لها عن صديقات مدرستي، ولم تعد تسألني، كنت غاضبة

منها، حرمتني أبي ثانية، ولو كان طيفا عابرا، وربما تائها، لكنه كان يكفيني ويشبعني. كنت أرقد إلى جوارها فأسمعها تردد آيات قرآنية تحفظها غيبا، تقرأها وهي نائمة، مغمضة العينين، تتمتم شفتاها ما تحفظ منذ الصغر، وتمسح بريقها رأسي وجسدي وصدري، فأنام عميقا وأنا أتمنى رؤية أبي، ولو في الحلم، كيف تتعوذ بالله من رؤيته، من رؤية أبي؟!

انتقلنا بعد أشهر من دارنا في قريتنا، إلى بيت خالي في المدينة، كانت أمي في بيت خالي ضيفة تخدم أهل البيت، وإن كان تطوعا، وهي التي كانت في بيتها سيدة دار، كان لها خدم يسعون قبلها، وإن كانت خدمتهم مقابل أجر زهيد، أو طعام من طعام أهل الدار، فلم نكن في دارنا مترفين، ولكن الحياة كانت أقل تعقيدا من بيوت المدن، كان الفطير يشبعنا، والبطاطا والذرة وخبز أمي يكفينا، ولو كان بلا غموس.

كنت أرى فوق رءوس أبناء خالي، تاجا من العز، لا يراه إلا المحرومون، وكنت يوما بعد يوم أدرك مرارة الحرمان من نداء له لذة يرددونه، حين ينظرون للأعلي، وهم إلى جوار خالي يمسكون بيده وثوبه وينادونه: أبي، أبي.

كان إخوتي الصغار يقلدونهم، وينادونه أبي، فيتطاير الشرر من عيني زوجته، وتفتعل مشاجرة مع أمي، ويصمت خالي، ويوما بعد يوم لقنت أمي إخوتي لقب خال، بدلا من أبي، لكنهم كانوا ينادونه يا خال أمام زوجته فقط، دون أن يعلمهم أحد.

الأطفال يعرفون كل شيء بقلوبهم، وإن لم يعِها عقلهم، أو ينطق بها الكبار.

وتذكرت لم كنت أكره أمي، كنت طفلة في دارنا القديم، قالت لي أمي: الليلة الطهور، ووضعوا الحناء والعطور في الغرفة.

هل كانت أمي سعيدة؟ هل كان النسوة سعيدات؟

لا أدري ماذا كان شعورهن، الزغاريد والأغنيات حولي، تشتت انتباهي عن شيء ما يحدث، الأيدي البضة الغضة الكبيرة تتحسسني.. ألقينني على الفراش، وجلست إحداهن على صدري، غرست أخرى أصابعها في فخذي الأيمن وشدت الثالثة الأيسر، وخرجت أمي من الغرفة تبكي.

هل كانت تعرف ما سيحدث؟!

سمعت الدايه تقول: بسم الله.

سمعت بأذني لحمي يتمزق، ويرمى به إلى صحن تحول لونه، إلى لون الدم.

صرخت وصرخت...

قالت الداية:

بسم الله بسم الله عليكِ... قومي امشي.

باسمك يا إلهي مزقوني، عند ذكر اسمك صرخت وصرخت، وخرجت الدايه، ودخلت أمي تطمئن، ضمتني إلى صدرها.

لم يقربني أبي أسبوعا كاملا، بقيت في غرفتي راقدة، تطعمني أمي في فمي، لماذا يخاصمني أبي؟ كنت أسأل أمي.. فتبتسم وتقول: أبوك رقيق القلب. لم أعرف ماذا كان هناك بداخلي، كيف كان شكله، ولماذا قرروا بتره؟

فكرت وأنا وحدي في فراشي الملطخ بالدماء:

هل لأنني أتبول من ذلك المكان؟

مرة قالت لي أمي: للنظافة.. أنت الآن نظيفة كمريم البتول.

ومرة قالت أمي للعفاف: أنت اليوم في عفة وطهارة مريم.

فكرت وأنا وحدي، كان عمري سبعة أعوام، كيف لي أن أعرف كيف كانت مريم العذراء. كنت أقرأ سورة مريم.. وأحسد مريم العذراء، لأنها تعرف

ماذا تريد، ولأنها قوية، ولأنها احتملت فراق أهلها، ولأن الله يحبها، ويرضى عنها لأنها طاهرة، ولأنها عذراء.

تستيقظ أمي في بيت خالي فجرا، قبل أن يصحو هو وزوجته، تخبز وتطهو وتغسل الثياب وتعد الفطور وربما الغداء، حتى إذا صحا خالي وزوجته سعدا بما يجدا من نشاطها. رائحة الخبيز والثياب النظيفة تملأ الدار، فتصرف بذلك عنا أي أذى، أو ضيق بصدر زوجة خالي، يخرج لنا في نظرات حادة لطعامنا، أو كلمات تجرح قلوبنا الغضة الندية، قلما تعتذر عنها، وقلما يسمعها خالي وإن حضرها.

ومضت بنا سنوات هادئة لم تدم طويلا، شب أخي مصطفى إلى مشارف المراهقة، وبدا أنه يعاني تعسرا في دراسته، ومشكلات بينه وبين أبناء الجيران، كان مصطفى غاضبا، وانتقل غضبه إلى داخل البيت بعد أن كان بين الجيران، وانتقلت مشاكله إلى أبناء خالي، بعد أن كانت بينه وبين إخوته، وبدأ خالي يغلظ القول لمصطفى، حتى تكررت منه أفعاله، وامتدت عصا خالي وكفه إليه، إلى جسده النحيل، ووجهه الغاضب، وعينيه الحائرتين.

كانت أمي كلما اشتدت غلظة خالي على مصطفى، تتكور فوق فراشها في جلبابها الأسود، الذي لم تخلعه منذ وفاة أبي، تحيط به بدنها المرتعش، وأتكوم إلى جوارها، ثم تشد علينا الغطاء المشترك، وتتحسس ظهري، وتربت عليه حتى أنام، ثم أنتبه بعد ساعات لبكائها المكتوم، ولا أدري لم يطفر الدمع من عيني سريعا حينما أتحسس وجهها، وعينيها المبتلتين، كنت أظن أنني أكرهها، وفي ليلة سألتها:

- لم تبكين؟! هل يبكيك مصطفى؟!

قالت لا إنما أبكاني أبوك!

وكنت أحتار في إجابتها، كيف يبكيها أبي، وهو راقد تحت الثرى، في قريتنا نقرأ على روحه الفاتحة، ونخبز بعض أقراص الرحمة ونذهب بها إلى جوار مسجد السيدة نفيسة، لنفرقها بأيدي الهوام التائهين، ومعها بعض النقود، ونقول لهم ادعوا لروح أبي.

كانت أمي تفعل ذلك كلما اشتاقت إليه، وتذكرته، وتأخذني معها يدي بيدها، كنت أقبل يدها، وهي تصلي إلى جوار السيدة نفيسة وتحدثها، وتشكو لها الأيام.

وخلت يوما أنني سمعت همسا، يقول من خلف الضوء الأخضر، فوق المرقد الذي تتلمسه الأيدي للبركة: اصبري صبرا.. اصبري صبرا.

وأخبرت أمي فلم تغضب كما المرة السابقة، حين أخبرتها عن طيف أبي، لكنها صمتت أولا، ثم قطبت جبينها وتمتمت:

- اللهم اجعله خيرا.. اللهم اجعله خيرا.

لم يجر في نفسي ما جرى من الذعر في نفس أمي، من مقدم امرأة جديدة، صغيرة السن إلى بيت خالي، وكنت أعجب من انقباضها وحزنها، فما شأننا إن تزوج خالي بأخرى.

أما حزن زوجة خالي الأولى فلم يكن يؤلمني، وإنما كانت دموعها تشفي جراحا في صدري، وصدر أخي مصطفى، نتهامسها ليلا.

كان خالي قد بلغ الخمسين من عمره، وما زال ثورا هائجا، كل صغيرة كبيرة تقع عليها عيناه، كانت مبعثا لإثارة غضبه، حاله كل يوم الثورة ورفع الصوت في وجه أمي وزوجته، وبناته إن حضرن، وأنا إن وقفت مسمرة أمامه.

حتى الطعام وملحه، أو سخونته وميوعته، بل والأرز وكميته، ورائحته إن زاد زمن تسويته، أو تغيرت نكهته، كلها كانت كوات انفجار ينطلق منها غضبه.

كان يهدأ ما إن يتذوق طعامه، فإذا فرغ وأحضرنا له طست ماء، وإبريقا لصب الماء فوق يديه برفق، إن كنت أنا، نهرني لأنني قصيرة، ويضطر للانحناء بظهره، فينادي مصطفى، قبل أن يذكر أبناءه، يزجر مصطفى إن تعجل في رفع الماء، أو زاد صبه، ويخطف قطعة الصابون من فوق الطبق ويفحصها بعينيه أولا، وغالبا ما يصرخ في وجه مصطفى إن وجد بها شعرة علقت، أو قشة أو أيا كان ما يغضبه، ويكون سببا في هياجه، فيكون جزاء مصطفى الراكع لصب الماء بين يديه، ضربة في الصدر أو ركلة في الساق، وأقل ما يتوقع أن يقذفه بماء الطست في وجهه.

هكذا مرت سنواتي الأولى، حتى ذهبت إلى المدرسة، في الحي الذي يسكنه خالي، وتعلقت بها، وكنت أعجب من الأولاد الذين يفضلون اللعب، يحملهم آباؤهم على الذهاب للمدرسة حملا، وهم يبكون ويتمارضون..

أذهب إلى المدرسة، سعيدة كل صباح، وإن نسيت أمي طعامي لانشغالها، أو مرضها، لا أغضب، ولعل من عطايا الله لي، أن وهبني ذكاء زائدا عن أقراني، ومحبة لا أدري لها سببا، تسكن قلوب من حولي، من مدرسين وأولاد. ربما جذبتها نظرات الحزن، والانكسار الساكن في عيني، ما إن يشاع عني أنني يتيمة، أو ربما نظرات الحيرة في عيوني الزائغة، التي تشربتها من أمي.

هاتان العينان المستديرتان، تشبهان أزهار الفرجس الصغيرة، هادئة ومتحفزة، وبريقها يسلب الألباب، هكذا كان مدرس اللغة العربية يصفني.

وشفع لي صمتي وعقلي بين المدرسين، فسمحوا بصحبتي، وكنت أمتثل للنصائح قبل الأوامر، كنت أحب صحبتهم، وأجد بينهم عقولا تسعني، أصمت بينهم وأرشف منهم، وأود لو طال اليوم الدراسي، حتي لا أعود للبيت.

كنت أسير إلى جوار مصطفى هادئة في مريولي الدمور، شعري مشدود فوق رأسي ضفائر غليظة، تكتمها أمي بالزيوت والشرائط البيضاء، حقيبتي في يد

مصطفى إلى جوار حقيبته، في يدي ساندوتش العسل الأسود بالطحينة، تصر أمي أن تضعه في يدي كل صباح، أتذمر وأدعو الله أن ينكسر البلاص فوق النملية أو يلتهمه نمل المطبخ، يسبقني مصطفى بخطوة ثم ينتظر حتى ألحق به، يمنح خطواتي البطيئة وقتها لتلحق به، ينفك رباط حذائي فيوقفني، ويلقي بالحقائب تحت قدمي لأضع قدمي فوقها، ويربطه لي، يبدو مصطفى وهو منحن فوق ساقي أكبر سنا من كل إخوة صديقاتي.

زادت حدة خالي في معاملة مصطفى، حتى إنه يوما ضربه بخرطوم غليظ، ترك أثرا في وجهه، رآه الجيران والمدرسون، فأسرعوا لبيت خالي يعاتبونه، فما كان من أمي إلا أن رفضت لقاءهم، بحجة أنه أبوه ويؤدبه كما يرى.

وجلست في فراشها تبكي وترتعد، وتنتفض بالحمى ليلة كاملة.

كانت النساء هي الشيء العامر في حياة خالي، الهائجة الثائرة، يأتين في زيجات متفرقة في نفس الدار، فتهدأ الدار لأشهر، ثم يرحلن في صمت، لا يمسكهن لأطول من ذلك.

زيجة خلف زيجة، يفصل بين كل منها عام أو عامان، حسب سعته المالية وقدرته، كانت زوجته تلزم غرفتها أشهرا تبكي، وتبتعد عن غرفته، حتي إذا اشتاقها وأتى إليها صرف الأخرى.

كانت زوجة خالي تترك له غرفتها ليتزوج فيها، وتنام مع أبنائها في غرفتهم، كانت أمي تصبرها وتواسيها، وتحمل عنها أعباء البيت، وتنسى ما كان منها، حتى إذا مرت الزيجة وعاد إليها خالي بسلام وصرف الأخرى، عادت لطبيعتها الأولى، وأدارت ظهرها لأمي.

إلا هذه المرة، فقد وقع الشر نفسه، المختارة عروس صغيرة السن، خفيفة الروح، تضحك ليل نهار، أرملة توفي زوجها في حادث، وترك لها طفلين. احتلت العروس غرفة زوجة خالي، وأرادت غرفة أخرى لطفليها، أتت بهما

معها للدار، طيلة أيامها السبع الأولى، لا تغادر غرفتها، وخالي يلازمها، وكانت أمي وزوجته الأولى تعدان لهما الطعام، وتقدمانه في موعد ثابت، وإن تأخرتا في إرسال صينية الطعام، خبط خالي من داخل غرفته، فوق الباب بعصاه، فترتعد أمي وزوجته، ويسرعان للعمل. كانت أمي تطيب خاطرها وتصبرها، وتذكرها بالمرات السابقة، وهي تعلم في قرارة نفسها أن هذه المرة مختلفة.

وكان أبناؤه وبناته أقل حسرة ووعيا منا أنا ومصطفى، فلم يبد عليهم إدراك جل مصابهم، إلا فيما بعد، وربما علمنا برائحة المصائب أنبأنا بما سيكون، أما هم فحديثو عهد بها.

وأخيرا بعد اليوم السابع، ظهرت لنا زوجة خالي الجديدة، ببياض قميصها الحريري، وسواد شعرها الفاحم، الناعم الطويل، ونعومة بشرتها الصافية الوردية، التي تشبه بشرة الأطفال في رقتها، ووقفنا ننظر لهذا الجمال، ولهذه العيون المكحلة بالسواد، ونتعجب كيف رضيت بزوج كخالي، ونهرنا لما رأى في عيوننا من تساؤل يفهمه. كان سواد شعرها الطويل كسواد أيامنا ولياليا الآتية في هذا البيت.

أحس خالي بثقل المسئولية فوق كتفيه، كان راتبه كموظف بالكاد يكفينا وأسرته الأولى، فإذا به يضيف إلينا طفلين وزوجة جديدة، لها متطلبات الشابات، من زينة وأقمشة وخياطة ملابس، وقمصان نوم جديدة، وطعام يليق بعروس، ودهانات لغرفتها وغرفة أطفالها، ثم كسوة جديدة للشتاء، وستائر ولحاف بكسوة حريرية ذات ورود ربيعية وألوان زاهية. كل هذا في أشهر قليلة كنت أرى في عينيها بريقا لم أره في عيون سابقاتها من زوجات خالي، اللائي رحلن قبلها، ولم أره قبلا بعيني أمي... بريق خفت منه.. بريق نهم للحياة.

كل يومها بها ألم في رأسها، يرقدها طوال الصباح، حتى يقترب موعد عودة خالي فتهب للباب سابقة.. لا شكر على إحسان، ولا صمت على تقصير تقع عليه عينها، وكأن خالي قد أصبح سوطا في يدها، دون أن تنطق، فقط بالنظرة والإشارة، بعد أن كثر الضيوف في بيت خالي، من أقارب زوجته الشابة وأصهاره، أصبحنا يتامى الدار نحن وأبناؤه أيضا، نرقد ليلا بنصف عشاء، بعد أن امتد إسراف خالي إلى طعامنا وكسوتنا ليرضي زوجته.

كانت حجرة الضيوف إلى جوار الباب، لا تُفتح إلا للزوار، من الصيف للصيف، وكان مصطفى ينام فيها، فأصبح مرقد مصطفى في المطبخ.

مصطفى

حدثني عن الأحداث التي تخلق منك رجلا، قبل الأوان، تلك اللحظة الفارقة التي لا تعود بعدها كما كنت، ينجرح صوتك ويتحشرج، وأنت تخط بالأقلام السوداء شاربك، أن تسابق الأيام وتحمل فوق ظهرك حمل الرجال، وتملأ صدرك بالزفير المكتوم، ثمرة غضة يافعة، لا رحيق بعد ولا رائحة، تسقط قبل أوانها، ربما إن حالفها الحظ تنضج حين السقوط، وتكتمل وحدها، وربما تذوي يابسة.

كانت طفولتي من ذلك النوع، الذي يصعب نسيانه، لم تكن بلهاء سعيدة تمر أيامها بلا أثر جرح غائر، بل كان كل يوم هو يوم جرح، وكل جرح يترك ندبة، يصعب على الروح ابتلاعها.

تلفحني الحسرة، وأنا في شبابي، فأشعر أنني كهل عجوز، روحي تشيخ بالذكرى، كلما تحسست تلك الندب، عادت إليها الحياة، ورجعت طازجة.

تفننت الأقدار في إيذائي، حتى كادت تخلق مني وحشا، أو مجرما، لولا أن ذات الأقدار هدمت فوق رأسي بنيانا، اعتليت أنقاضه فنجوت.

ويبدو أن القدر استسلم لكفاحي المضني، وربما خجل من عنادي، وإصراري لما استسلمت لقبضته، ورضيت عنه، فكافأني بتركي، بعدما تيقن أن ندب روحي ندب لن يشفيها زمن، ولن تعفو عنها ذاكرة.

كان أبي طرازا من الرجال غريبا، اشتهر في عائلته بعناده، وتعصبه لرأيه ولو كان على خطأ، رغم طيبة قلبه وسخائه، يحزن إن أجبر على التراجع عن رأيه، وإن بدا له أنه على خطأ، ولا يحزن إن فاتته منفعة أو غنيمة، ما دام فعل ما اشتهت نفسه ودله عقله.

إن رأسي ليست كرأس البشر، وعقلي سابق لعقولهم، وكأنني أتيت من الفضاء، بيني وبين إدراككم لي عشرات، بل مئات السنوات، جمجمتي أكبر من أدمغتكم الصغيرة، أغلقها الله على عقل متوهج بالذكاء والفطنة.

وإذا أخفق وكثيرا ما كان يحدث، قال إن الحظ يعاندني، والقدر يتربص بي، ويضرب حماره بباطن حذائه ذي الكعب لينطلق به نحو خضرة أرضه، يتمرغ فيها بعينيه فتُسرِّي عنه خسارته وإن عظُمت.

يزعم أن لقلبه في اختيار الناس، والثقة فيهم دليلا، إرثا ورثه عن نسل أمه، نسل مختار من القدر، عائلتها المختارة كانت تقرأ الوجوه، وتعرف الأنساب، واشتهرت بين العائلات بذلك، وصيتتها الحوادث والمصادفات.

يكره ويحب لا لسبب إلا وجه من أمامه، وكيف يراه في يومه، أشعر بالرثاء لك يا أبي، وبالغضب منك.

تنظر عيناي الصغيرتان لجبهته العريضة، وقد تحولت جلدتها إلى غضون دقيقة متقاربة، تذكرني ببشرة ثمرة الجميز المنكمشة الجافة، ألتقط الثمر من تحت أقدام شجرة الجميز خلف الدار، وآتي به إلى أمي، وأنا عائد من الكُتاب، مقهورا من شيخي، مصابا في كبريائي، بعد أن ضربني بعصاه ضربات حارة، ألهبت باطن قدمي، كانت أمي تطعمني الثمرات، وتربت على صدري، وتردد لي أبوك يريدك شيخا معمما، ليفرح بك ويتفاخر، وتزيدني قطعا من السكر أتلهى بها، فيسكن كبريائي.

في عامه الأخير، كان يعود بعد غياب ليال، فإذا به يجلس أمام الدار، يفترش مصطبته واجما مقطب الجبين، حتى إذا دخل الدار ودخل غرفته، ارتفع صوته قبل أن يغلق الباب، يتوعد كل من يبدي حركة أو صخبا يعكر صفو تأملاته وصلواته وتسبيحاته وخلوته التي قد تمتد لأيام.

يفترش الأرض مسندا ظهره إلى كنبة خشبية بغرفته، أراقبه من خلف الباب، من ثقب بين ألواح خشب الباب المتراصة، المتباعدة من برد الشتاء، يجلس مفترشا ملاءته البيضاء، أمامه منضدته الخشبية قصيرة الأرجل المستديرة نسميها طبلية، سيقانها قصيرة نحيلة كسيقاني الصغيرة، وأنا أتطاول لأنظر من ثقب أكبر يعلو رأسي.

يفرد فوق الطبلية أوراق كتب، صفراء مبعثرة، وشموعا ومسبحة، وزجاجات زيوته العطرية، وزجاجات يملأها بماء مقروء عليه من شيوخ طريقته، من يسعى إليهم، وبين يديهم في مواقيته الثابتة، يقطر لنا منها في أعيننا، كل صباح جمعة يكون فيها بيننا قبل الصلاة، وكنت أشعر بها كماء النار في عيني، وأظل أتقافز حتى تغسل عيناي الدموع.

أسكن بالباب لساعات طوال، وربما غلبني النوم واقفا، وأنا أستمع إلى همس صلواته، حتى إذا فرغ من جلسته الطويلة، وانفتح الباب، خرج منه متهدلا، منهكا متهالكا، يمسح جبهته ورأسه بماء الورد، ويتمتم: إنهم سادة.. إنهم سادة.

هناك خلف الدار، تحت شجرة الجميز العتيقة، أجلس وحدي، فقد ورثت عن أبي حب الوحدة ولذة التأمل، أجلس تحتها أقلب في الأرض نظراتي، حتي يغمر ظلها جسدي، فأرى أثر الظل في وجهي، وكأنما أنا ثمرة منها.

كانت قسوة أبي عليّ فقط، لا تعليل لها سوى فزعه علي، ورغبته في أن يعوض بي ما فاته من عز ووجاهة وسمعة وربما مال، كان رجلا كثير الهواجس، سريع التصديق لطيبةٍ في قلبه، جر بها على نفسه قسوة الحياة والناس، كان كتلة من الأوهام تقودها المشاعر، ترتدي جلبابا وقفطانا وعمامة، تلك العمامة التي كان يريد أن يلبسها لي، وكنت لم أتجاوز الخامسة بعد، وعمامته أكبر من رأسي، ربما في القياس فقط.

حين نسير في الطريق معا، يتخيل أن أيه ضحكة، أو همسة من عابر حولنا إنما نحن المقصودون بها، وربما كان محقا في ظنه.

تفتحت عيناي على هذا الأب وطباعه، وأم تجلس ساعات تدبر أمور الدار، من رعاية أطفالها، وطعام وخبيز، وخزين في المواسم، وتنظم أمور الخدم والطيور والبهائم، وكل ذلك لم يكن يملأ وحدتها، ولا يشفي فقدها الأنيس والرفيق، تشكو الوحدة وإن حضر أبي، أسمعها تشكو لأختها، وتقول: كتب عليّ البخت القليل.

وكانت أختها تنفي عنها ذلك، وتدعو لها، وتنصحها بزيارة الأولياء والسيدة نفيسة، وكانت أمي تلح على أبي أن يأخذها إلى السيدة نفيسة للزيارة، مرة يرضى وكثيرا ما كان يرفض.

أقف أمام قبرك اليوم، في قريتنا يا أبي، أتيت لزيارتك، أقرأ لك الفاتحة وأترحم عليك، عفرت قدمي بترابك، هل تسمعني يا أبي؟

مضى من عمري خمسون عاما منذ أن رحلت، وما زلت أبكي بين يديك.. أبكي ذلك الطفل الذي تذوق قسوتك، ولم يتشرب كل حنانك..

توقظني رفسا وركلا، وأنا ابن عامين وثلاث، لأذهب للكتاب، وأحفظ آيات عجزت أنت عن حفظها، لماذا كنت تفعل ذلك يا أبي؟

أنسى ما أحفظ، ويضربني شيخي، وتعيدني إليه، وأنت تعتذر له عن بطء حفظي.. أنسى ما يلقي إلى أذني، ويكرره لساني، ولا أعيه بقلبي..

أبكي لأمي فتقول لي: أنت البكر.. أنت ابن أبيك، وحامل لقب عائلته.

وترسل معي فطيرا وسكرا لشيخي، ليصبر علي، ويأخذ الشيخ العطية؛ فيخفف طريحتي من خمس إلى ثلاث خرزانات، تلهب الملعونة باطن قدمي، فأعجز عن الجري، واللعب مع الأولاد، تمر الساعات بطيئة كديدان الأرض، وأضع قدمي في الترعة لتبرد، وأداعب الماء بأصابعي، وأخلع عني عباءة الشيخ

الصغير ولو لساعة، ويستكثر الأولاد ساعة صفائي، فيبلغون عني أبي وهو يعمل في أرضه، فيأتي إلي ركضا، تاركا أيا كان ما في يده، يلقي فأسه وحين يراني على هذا الحال، وقد أتى مهرولا مهتاجا، ينظر إلى بشرر عينيه، ويضربني أمام الأولاد، ويضحكون.

هيبة الشيخ وعمامته ستضيع في اللعب.. يشكوني إلى أمي..

يقال إن شجرة الجميز شجرة عتيقة، استظل تحتها السيد المسيح، في رحلته إلى مصر، ويقال إنها شجرة مقدسة عند الفراعنة، كانت ثمار الجميز تلقى جافة، في المقابر الفرعونية، وأوراقها في توابيت الموتى، وقيل إن أوزيريس دفن في تابوت مصنوع من خشب الجميز. لا يهمني نسبها، هي أمي التي طالما همست إليها، وأطعمتني وسكنْت بين أحضانها.

لماذا يا أبي كانت لهفتك تلك؟

لماذا يا أبي، وقد أصبحت يتيما، وأنا ابن عشر سنين، ذقت بعدها من الهوان، ما هو أعظم مما ذقته على يديك، أصبحت أبا لإخوتي بدلا منك، لو تركتني طفلا فقط لعشر سنوات، عشر سنوات من الطفولة كانت لتكفيني، كانت لتشبعني.

أبكيك يا أبي كأنك مت بالأمس، كانت أمي تدعوني بالمارد، كنت أعذبها ولا أدري لذلك سببا، كنت غاضبا، حتى ضربتني مرة بقبقابها الخشبي في رأسي، فانفجر الدم منه قانيا، وكتمته فاطمة بالبن وربطت لي رأسي، وترك الجرح ندبة ظاهرة كلما تحسستها تذكرت، كان ثمن ذهابي للسينما، وهروبي من ليلة عمل في المصنع، تركت وردية العمل لأرى السينما بصحبة أقراني، وأبلغ مشرفي في المصنع وجارنا أمي، فانتظرتني حتى قدمت للبيت، منتشيا سعيدا أعد الكذبات المتراصة، وانتظرت أمي حتى انتهيت من كل كذباتي،

وانهالت بقبقابها على رأسي، أقراني، أقراني يا أبي، في عمر الخمسة عشر يغوونني، في الأعياد بالسينما والفشار والضحك.

أكملت دراستي متأخرا، بعد أن أنهيت تعليم إخوتي، رزقت أبنائي وأنا في الثلاثين، أكبرهم محمد سآتي به يوما إليك، أبنائي يا أبي ثلاثة، لن أغلق بابي دونهم، ولن أرحل عنهم مبكرا، تزوجت زينب ابنة خالي، وحب العمر، كانت تمد يدها الصغيرة، لتدفع عني ضربات خرطوم خالي، فيصيبها الخرطوم بضربات في يدها، وكان ذلك لا يوقفه عنا نحن الاثنين، انتظرتني طويلا، ثم زوجها خالي من أحد أصهاره الأثرياء، فمرضت طويلا وكادت أن تموت، فردها الزوج الملول، نافد الصبر إلى بيت أبيها، بعد عام واحد، ولولا ما حدث ما وافق خالي وزوجته، ولا زوجوها لي.

أين ذهب مالك؟ أين أنفقته؟ لماذا لم تترك لي شيئا منه؟

يقولون كان نابليون وجنوده أثناء تقهقرهم عن روسيا على الجليد يذبحون الخيل ليشربوا دماءها الدافئة حتى لا يتجمدوا من البرد، مع أن هذه الخيل كانت سلاحا ووسيلة عودة، الأرض قاسية، بطنها قاس وظهرها قاس، وجهها ترويه الدماء وبطنها لا يرقد فيه إلا الموتى.

درست التاريخ يا أبي لم أكن أريد العمامة، أنا أستاذ تاريخ يا أبي، أستاذ رسب سنوات حتى عرف ما يريد أن يتعلم.

يعني اسم جمال عبد الناصر للفلاحين الكثير، انحيازه لطبقة الفقراء، جعل عددا كبيرا من الفلاحين ملاكا للأراضي، لولاه ما استطعت أنا ولا إخوتي أن نكمل تعليمنا، لولا مجانية التعليم، والأفدنة الخمسة، التي حصل عليها خالي من الإصلاح الزراعي، من أبعادية حفيدة الخديو إسماعيل، التي كانت تمتلك ثلاثة آلاف فدان، جرى توزيعها على الفلاحين في القرية، لولاها ما تمكنت أسرته ولا أسرتنا من مواصلة الحياة.

يبدو أن عبد الناصر، انتصر في أول عهده فقط، للطبقة الوسطى، التي ينتمي إليها - إلى جانب الفقراء - كونه أحد أبنائها، أبوه كان موظفا بسيطا في البريد، ما منحه درجة أعلى في السلم الاجتماعي، حتى لو كان في أدناها، مثلنا تماما أنا وفاطمة وإخوتي، وقف عودا صلبا وحده، عبد الناصر كان واحدا منا، ولذا كنا نهتف باسمه، ناصر يا عود الفل، كانت تلك شعرة بيضاء في ثوب أسود، وربما حالك السواد.

أشياء عظيمة حققتها الثورة، وأخطاء كبيرة، فتح ناصر السجون والمعتقلات بدون مبرر، حتى وقتنا هذا، لا أفهم لماذا كان التعذيب وحشيا بهذه الصورة، ومن أين كانت تأتيهم الأوامر، جمال عبد الناصر حكم مصر ١٨ عاما قضى منها محمود ابن خالي ١٢ عاما في المعتقلات والسجون والتعذيب، كان خالي في تلك السنوات، يذرف دمعا حارا، لكل من يأتيه من ابنه بخبر، ولو كان خبر موته، لا أذكر أنني أشفقت عليه، قبل ذلك اليوم، ذهبت معه لزيارة محمود في السجن، ورأينا في وجهه وجسده آثار ضرب وتعذيب، كان صامتا، السلام في وجهه، ينظر إلى الأرض، بين ساقيه، بدا هزيلا، مصفرا، زائغ النظرات، كان ينظر بعينيه نحو الشمس كلما رفع رأسه، سرنا معا جنبا إلى جنب، ونحن نغادر البوابة، كنت أبصق على الأرض، وكان خالي يبكي.

أخذني معه يوما، إلى ذلك المكان، حيث يؤخذ منا ونفتقده، سفر طويل في سيارات نقل بضائع، بين الخضر، نركب واحدة وما نلبث إلا ساعة، أو أقل حتي نستبدل بها أخرى، لم يكن أبي بحاجة لذلك، كان يمكنه دفع أجرة راكبين بسهولة، لم يكن بعد فقيرا.

كان يحكي لي عن رجال ليسوا كالرجال، عظامهم بارزة، يرتدون أكثر الثياب رثاثة لكنهم يعمرون أركان الدنيا، يسيرون فوق سطح الماء تطوى بخطواتهم المسافات الشاسعة لا يلتفتون للزمن، يهبون الشفاء للمرضى والبركة

للبطون، إن لم يريدوا لم تستطع تمييزهم عن الناس، يموتون فيتركون خلفهم البركة والقباب، تشد الأعناق إليهم الرحال، محمول فوقها النذور والهبات والأمنيات..

استهلكني الطريق، وكنت متعبا، أغفو لدقائق، ثم يشدني أبي من ذراعي، كأنه لا يريد لجسدي أن يستريح على حال، قبل الوصول..

إلى أى مولد نحن ذاهبان يا أبي؟

ينظر إلي نظرة من لا يفهم ما أقول، ولا يجيب...

أنا جائع يا أبي..

يلقي في كفي بعض التمرات الجافة...

في الطريق انفرطت مسبحة أبي، حاولت أن أجمعها له، لكنه أمسك يدي ورفض...

قال لي: ما انفرط لن يُجمع

أخرج لي من حقيبته غيرها، وترك حباتها، تسرح على أرض السيارة، تعلو وتهبط، وتتدحرج وتنسكب إلى الطريق، دمعت عيناه وهو يراقبها.

حين انتصف الليل، انتبهت على صوت السيارة تتوقف، في رهق وتعب، كعجوز أضناها السفر، ترجلنا وأمسك أبي بذراعي، وسرت خلفه، كان كالوتد الجاف منتصبا، كيف نحف أبي لهذه الدرجة، وخشنت كف يده، وخشنت خطواته واتسعت، رأيت شخصا آخر، غير ذاك العنيد، ذي القلب اللين، الذي أعرفه، ترى أيهما أبي؟!

دخل بي قاعة واسعة، ممتدة الأركان، وخطواتي تلاحقه.. قال أبي: لا تخف. كان يلقي بنظراته في كل الأركان، كمن يبحث عمن فقده باشتياق.

كنتُ أسير خلفه أمسك بطرف جلبابه، أتلفت حولي يسحبني بخفة، بدا لي أن الجميع من نظراتهم إليه يعرفونه.. وقف رجل في منتصف القاعة..

شيخا نحيلا يلتف حوله جمع قليل، يتمايل يمينا ثم يسارا، برأسه تارة ثم بجسده كاملا، ينحني ويعتدل، وكأنه يدور في دوائر يرسمها جسده.. بدا بينهم سيدا.

همهمات تعلو وتنخفض كموج ناعم دافئ، لم يكن الحضور كاملا، بدا ذلك واضحا من تمهل خطوات أبي ما إن دخلنا.

المنشد يتوسط الحضور، نظراته زائغة بينهم، يئن أنين الملتاع المشتاق، ما إن يغمض عينيه انتشاء حتى يفتحهما بانتباه لا يطول.. ينظر في الفراغ خلف الحضور.. يلتهم الدخان بيديه ويعاود الدوران بذراعيه كالطير الحائر.

تلاحمت الصفوف، وتكومت الأجساد كل برائحته، اختلطت الروائح بعد زمن برائحة المكان، وبخوره وأنفاسه، ربما صوته كان دليلا للحائرين خارج القاعة، في خفوته وشدته يدعو، يعلو ويهبط ثم يصمت.

حالة من التوهج سرت، وتسربت منه إلى الحاضرين المتحلّقين حوله، في لحظة ما قد لا يدرك أحد متى بدأت، ولا اتُفق عليها بينهم، رأيت الحاضرين كل يقف ويترنح، بإيقاع صوت الرجل وهمهماته.. ذِكر يتردد في القاعة.. الله.. الله..

ويعلو الصوت ويتوحد بينهم، تتراتب الأصوات، فوق بصمة صوت الرجل.. وشيئا فشيئا تتوحد.

قام إليهم أبي.. يا رب المستضعفين والمساكين يا رب يا فتاح هبنا بفضلك المفتاح....

ترك يدي، وتوجه إلى الجهة الأخرى.. نحوهم.. خِفت فنظر إليّ، وأشار إليّ أن أهدأ، بدأتُ في الطواف بين الحاضرين..

زال خوفي.. غشيتني سكينة، كدت أن أغفو، الألفة والأجساد المتمايلة والدخان تكسو الجدران، أطفال يملأون الأركان، ينامون فوق الحصير

متراصين، وجد هو مكانا، تعلق بصري به، أشرت إليه أريد الخروج، لم يجبني كأنه لم يكن يسمعني، أو كأنني أنا لم أكن أتحدث إليه.

الجالس إلى جواري من الجهة الأخرى ممسكا بأطراف لحيته البيضاء اقترب بوجهه من أذني، مال علي وقال بصوت لا يسمعه غيري: الشيخ لن يرد عليك، لا يدرك ما حوله، حين يصل إلى ملكوته لا يحدث أحدا، يأتي ويجلس في أحد أركان الزاوية وحيدا، يدعو بصوت خفيض، ويردد أذكارا لا يسمعها غيره، همس غير مسموع، حتى لو جربت الاقتراب منه لتنصت لن تدرك ما يقول... ليتني من مريديه لأغترف من علمه...

قام الرجل منتفضا: مدد يا سيدي وسندي ومرشدي وتاج رأسي ونور عيني. مضى لينضم إلى الجمع المتقافز، كانت رءوسهم تعلو وتهبط كرءوس الطير، كان الرجل قد بدأ في صياح ممتد، بصوت مشروخ عميق.. الله.. حي!

وجدتُ نفسي أدخل حلقة الذكر خلفه.. كنتُ أتمايل بخفة، أحاول أن أصاحب إيقاع الدف أريد أن أوافقه وأوافقهم..

نظرت إلى سيد الذاكرين بينهم وكأنما الرجل عليه فتح إلهى، كان يتمايل كما تتمايل الأشجار، وظهر عليه أثر الوجد الربانى وترى من حوله سكارى ينشدون:

وفيه بباب الحق نال حقائقا

بها سرت الأسرار من عالم السر

وفى المشهد القدسى الرفيع مقامه

حوى رفعة الذات المشرفة القدر

حالة أخذته شدتها وفيضها ونورانيتها، وربما لم تقو نفسه على تحملها فما لبث أن خر على الأرض مغشيا عليه، وإن كان قدره بقي كبيرا وعظيما بعد أن استقر راقدا بينهم على الأرض حوله مريدوه.. يتخاطفونه بينهم، كل يريد بركته.

ملك الملوك حباك فضلاِ زائدا ولمثلنا قد تبذل الصدقات..

بعد أن استقر وهدأ الوجد هام مرتقيا إلى أسمى مقام وقد أخذته الحال فترنم بما هو عليه:

شربت بكأس الأنس في خير حضرةٍ

فيا طيبها من حضرة صمديَّةِ

يعاود الرجل الوقوف وسط الحضور.. كلكم عون وغوث ومدد. يشير إلى ضارب الدف فيضربها بحركة بين السرعة والبطء، تردد الجموع بصوت واحد ذكرا واحدا: حي الله... حي الله.. يلزمون تحريك الرأس يمينا وشمالا مثله، يشير بيديه وعينيه للانتقال إلى ذكر آخر ثم يجلس بين الذاكرين فيجلسون..

ونحن لا حرف ولا معنى لا معه ونحن لا معنا
إشارة القوسين أو أدنى بل نحن أمر واحد كلنا
وهما على وهم وما كنا وهو الوجود الحق كنا به

ساعات طوتني بين الذكر والركض واقفا والقول مثلهم: حي.. الله حي.. أخذتني رعدة شديدة خشيت على عقلي أن يذهب، الحركة أثارت الدماء في جسدي، تختلج عروقي وما تلبث أن تخمد ثورتها في مكان ما... تجتاحني

نشوتهم، دقات قلبي وافقت ضربات الدف، أطرافي ترتخي.... أفقد السيطرة عليها..

الصوت يأتي من بعيد.. يعلو مستجيرا: يا الله.. يا حي!

بدأت الرؤى في التدافع والتدفق! رأيت أبي ممسكا مسبحته، جالسا على الأرض في قريتنا ينظر إليّ ويبتسم.. كيف عرفتُ أنه مات؟ لا أعرف!

كان يرتدي شالا أخضر، همس لي. سنلتقي كثيرا يا مصطفي، حتى إن رحلت عنك ستصل إلي.. لهذا أتيت بك إلى هنا.. لتعرف الطريق.

حين فتحتُ عيني مرة أخرى، لم أكن بكامل وعيي، كنت محلقا، خفيفا كأنني خارج جسدي، لا أستطيع الارتكاز بثبات على الأرض.. كنت أهذي بما لا تفهم أذني، كان الألم في أحشائي يقتلني، ولكن هذا لم يمنعني أراه يبتسم لمن حوله، يبدو عليه الرهق، رهق السفر ووعثاء الطريق، ولكن وجهه مستريح، كما لو أن في وجهه مصباحا يتحرك معه، أو كمن ألقى للتو عن ظهره عبئا كان ينوء به، أخذ يُلقي بالهبات على من حوله، من الرقود ومن يلقانا بالطريق، بدا معروف الوجه واليد بينهم.

– لا تخبر أحدا بما رأيت يا مصطفى...

– نعم يا أبي..

تمنحك الحياة سلامها متأخرا، حين لا تكون قادرا علي العودة، وتغيير ما سبق من أفعال، كلها أتت إليك في طريق بحثك عنها، وحين ترغب في تمرير سر سلامها لمن يصغرك، لا يستجيب لك، كونه ما زال مذعورا، لا يعرف معنى الطمأنينة.. كطفل خرج للتو من رحم أمه المظلم، في قاع بطنها الدافئ إلى صخب وبرودة الكون... يصرخ ويصرخ، ويرفس حتى يشم جسدها ويهدأ، فإذا به يستفيق، وإذا بعمره قد انتهى.

كان أبي نفسا في قفص، كما يقال في القرى، في أشهر أبي الأخيرة زاد صمته وانعزاله، وزادت خلواته، كان يربت فوق رأسي مرددا: يا مصطفى وددت لو أراك شيخ عمود بالأزهر، لا تضيع ما حفظت في قلبك، أريد لك السعادة ورضا الله عنك. ويبدو أن أوان الأمنيات كان قد فات، وزحفت إلى دارنا ظلال الموت.

صحوت من النوم مذعورا على عويل، ورأيت أمي من خلال أجفاني المغمضة المثقلة، رأيتها تترنح فوق سرير أبي، كأنها الملسوعة، أو ربما الممسوسة، ثم رأيتها تبدل ثوبها الداكن بثوب أسود، طال بقاؤه فوق جسدها فيما بعد، ومنديل رأسها الأبيض، بمنديل بغيض أسود، كأن شعرها ضُرب عليه الحداد، تجوب الدار من حجرة إلى حجرة، وكأنما تبحث عن شيء ما، ويهبط جلال الموت رويدا رويدا إلى قلبي الصغير.

حضن أمي جف، يوما بعد يوم، كفروع شجرة الجميز العتيقة، وجف عودي وصلب، وتذكرت كلمة أبي يوم الحضرة، ونحن عائدان: الزيادة نقصان يا ولدي.. الزيادة نقصان.

في الليلة التالية لزيارة قبر أبي، كنت أتكئ إلى مصطبته، أمام دارنا القديمة، في قريتنا التي رحلنا عنها، طلبا لراحة وسكينة، لم نجدها، كنت أواصل في استغراق ترديد كلمات أبي، كان يرددها على مسامعي، وأنا بين يديه طفل صغير.. يعلمني كلماته:

أقسم عليك يا ودود.. أقسم عليك يا ودود

رد إلى أمانتي...

أنا العبد الضعيف بين يديك.. غارق في ذنوبي.

وبينما أنا كذلك، أرهفت السمع لهمس صوت، تعرفه أذني، لا يمكنها أن تخطئه، إنه صوت أبي رحمه الله، تزاحمت برأسي أسئلة كثيرة، في لحظة

غمرتني فيها مشاعر الخوف والشوق، ما لبثت أن سكنت حين رأيته أمامي، مهيبا في جلبابه، كما عهدته دائما، وحلت على أنفي رائحة زيته العطري، الذي كان يمسح بها كفه ووجهه..

ألقى علي السلام، وثبتُ نحوه، غير مصدق أو فاهم، احتضنته وقبلت يده وبكيت أمامه، ربت على صدري، وجلس إلى جواري على المصطبة، اقترب من موضع جلوسه الذي اعتاده، مكانه المفضل، تراجعت له فقربني إليه استوى في جلسته. بعد أن زال الروع عني، سألته متجاوزا عشرات الأسئلة والأجوبة في رأسي:

- أبي هل أنت راض؟

قال: نعم.. لكنني مشتاق.. وعطشان..

أسرعت إلى زجاجة ماء بارد، إلى جواري.. ناولتها له.. كان يرشف الماء رشفة رشفة، حتى ظننته أتى عليه.. أخذتها من يده، ووضعتها على الأرض، وأنا أنظر إليها، وهي على حالها، لم تنقص منها قطرة واحدة..

حمد الله وجفف شاربه بطرف كمه، كما اعتاد دوما، أشرق وجهه بابتسامة خفيفة، وقال لي: هل سامحتني؟

بكيت ثانية وقلت نعم...

وكأنما سقطت من عينيه دمعتان، وربما أكثر..

نظر صوب الأرض المحيطة بالدار وتمتم: كله إلى زوال.. الملك لله وحده.. ألم أقل لك إن في كل زيادة نقصان

نعم يا أبي...

مرت لحظات من الصمت.. ثم بادرني بالسؤال، عن أبناء عمومته، تعمدت أن أسترسل في الحديث، لأطيل بقاءه..

ألن تسأل عن أمي؟! ابتسم ولم ينظر إليّ...

كيف أختك فاطمة؟ مها.. يا مصطفي دونما بنات إخوتك.. مها في عينيك..

تمالكت نفسي، وقد ازداد تعرقي، وأنا أردد استجابتي للهجته الحازمة:

- نعم يا أبي.. نعم..

عادت إلى وجهه ابتسامة الرضا، بينما يردد بهمس:

فأهدت لنا من عطفها يوم سَلَمَتْ...

نسيما كريح المسك زدنا به وَجْدا

وكان يتسامى شيئا فشيئا، ويشف إلى ذرات من هباء، وشعاعات من نور أخذت تخفت، رويدا رويدا، حتى اختفى من أمامي، وأنا مثبت عيني مكان جلوسه الفارغ، غير خائف ولا وجل، ساكن سكون عقارب الساعة، التي تعطلت بعد طول مسير ودوران، وصدى آخر دقاتها، يؤنس صمتها.

صحوت من نومي متثاقلا، أحاول جاهدا فتح عيني، رغم قضاء الليل كله فى فراشي، أغط فى نوم عميق، لكن رأسي يؤلمني، ملت برأسي يمينا جهة النافذة، لمحت حزمة من شعاعات الشمس، تنفذ من الشراعة، كاشفة عن ذرات من الغبار، تبدو وكأنها تتراقص فى حركة لولبية، مددت يدي تحت الوسادة، أتحسس هاتفي، لأحادث ابنة أختي مها...

أمي قبل حفل سبوع سارة، بنت مها، والهون النحاسي يغني بين كفيها، تدقه في فرح، وضعت سارة في الغربال، وسمت عليها باسم الله، وأسمعتها صلاة النبي، وقالت محمد لسارة وسارة لمحمد. محمد يحب سارة حبا جارفا، ومها لن ترضى بمحمد، فاطمة أختي تريد لسارة شابا من عائلة ثرية، ونسبا يليق بالأستاذة الجامعية، ذات الصيت والنجاح، كيف أصبحت فاطمة، توأم روحي هكذا؟!

أنفها العالي، صرف عنها قلب زوجها أولا، ثم هجرها جسده، إلى بيت أبيه، مها رغم عنادها، وقشرتها الصلبة رقيقة القلب، ليست كأمها فاطمة، التي تغلغلت القسوة إلى روحها وجففتها..

مها حظها من السعادة قليل، في الحب والحياة، مها كمحمد، وهي ترى فيه قلبها الرقيق، ولذا تخشى منه على ابنتها، سارة عنيدة كفاطمة، لكنها ورثت رقة القلب من أمها مها، رغما عنها، وتكابر طوال عمرها لتختلف عنها، تعاني في صمت، من جفوة صنعتها الظروف بينهما، كانت تأتي إلى أحضاني وهي صغيرة، وتقول لي: يا خالي أنا أم لأمي!

محمد قلبه حنون، أخاف عليه منهن، وأخاف أن ينكسر قلبه، يريد محمد أن يتزوج سارة، ويسافر بها إلى كندا، وأنا سأبارك هذه الزيجة، سأساعدهما.. والد سارة موافق أيضا، ربما كيدا في فاطمة ومها، لا فرق عندي، المهم أنه وافق، سيتزوج محمد سارة رغما عن نسوة تحجرت قلوبهن، وشاخت أرواحهن، ونسين الحب بعد أن جفت عروقه في قلوبهن.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ

خالي مصطفى إلى جوارنا منذ الحادث، يشعر بالذنب ربما، لا وقت لدي للشفقة على سواك، ولا للحديث عن غيرك، كان مصمما أن يأخذ جثمان محمد إلى مصر، ليدفن هناك، في ثرى الوطن في بلدتنا، إلى جوار جدنا في مدافن الأسرة وكنت أريد أن يتركه هنا حتى تشفين، لأنك تحبين قربه، كنت أريدك أن تشعري بالأمن معه، أعلم أنني لم أكن أمنك في حياتك يا سارة، رغم كل ما فعلت من أجلك وإخوتك، لكنني كنت مصدر خوفك وقلقك، ربما أنت كنت أمني في أيام كثيرة.

الطبيب يقول إن سارة تمتلك بويضات مجمدة، مخزنة في بنك لديهم حفظتها ومعها رسالة منها قبل أشهر خوفا من فقدان قدرتها على الإنجاب، مم كنت تخافين يا سارة؟

بينما أنت تسقطين في بئرك المظلمة، طفلك بذرة في أحشاء الغيب ما زال ينتظر روحك الهائمة أن ترد إليك.. هل كنت تعرفين؟

(*)"أمي يا رفيقة صباي وطفلتي، عندما يشتد الألم تخطرين ببالي، وأعرف أنك لست هنا ولن تكوني هنا، وربما أستحق منك ذلك لكنها كلماتي ربما الأخيرة، أنا من أعماق قلبي أعتذر لك وأقبل اعتذارك، لا أريد أن يكون لي قبر حين أموت، لتأتي إليّ أنتِ وجدتي ويفيض حزنكما على. أنا لا أريد أن ترتدي ملابس الحداد السوداء على روحي، لن تقدم لي شيئا.

(*) عن رسالة ريحانة جباري (١٩٨٨ ٢٠١٤) إلى أمها مهندسة ديكور إيرانية قيل إنها راحت ضحية محاكمة مثيرة للجدل أدينت وأعدمت شنقا بتهمة قتل رجل حاول اغتصابها.

أريد أن أقدم شيئا أعظم في موتي، إن مت شابة ووجدت رسالتي، أنا لا أريد أن أتعفن تحت التراب.

لا أريد لعينيّ أو قلبي الشاب أن يتحولا إلى غبار، أريد أن أهب أعضائي وجسدي قطعة قطعة لمن يستحقون فرصة ثانية في الحياة، لمن سيحيون بشغف ويمنحون أعضائي فرصة ثانية تستحقها عيني وقلبي وربما كبدي وعظامي وأي قطعة يريدون، مزقوني إن شئتم طالما سأهب الحياة السعيدة لشخص يستحقها أو قد لا يستحقها هو، لكنني أنا أستحق فرصة ثانية.

العالم لم يحبني، لكنني أحببته، وأنا أستسلم لذا أنا أشعر بالسكينة والطمأنينة. يبدو أنني تعلمت درسي مبكرا، ولذا أشعر أنني أودعك.

أبذلي قصارى جهدك لنسيان أيامي الصعبة معك يا أمي، أعلم أنك ستفعلين وأنك الآن تبكين قبل أن تنهي رسالتي، إن كنت قد أبكيتك، فأنت قد أبكيتني أكثر، امنحيني سلاما يمنحني فرصة ثانية بقربك. أنا أخجل من حزنك. لماذا لم تعطني الحياة الفرصة لأصحح أخطائي؟! الجميع يخطئون، لكن الفرص لا يعاد توزيعها، لا بأس لست غاضبة من القدر، لا بد للمرء أن ينقب في روحه عن القسوة ليشفى منها.

الحرمان هذا الوحش النائم في أعماقنا، والذي يخرج بسهولة بالغة حينما نتظاهر بالاستغناء، كان هذا درسي الذي كان يجب أن أتعلمه.

تركت لك الكثير من الرسائل المكتوبة بخط اليد كإرث مني، لم أهبك شيئا من قبل ولم آخذ منك دبوس الصدر المرصع بالألماظ يوم زفافي كما كنت تتمنين، أعتذر أنني سلبتك الحلم، ولا أخذت القرط الهلالي من جدتي، ولكنني أخذت منك أعظم من ذلك... اعتني بما بقي مني اعتني بما تركت لك.

سارة... الجميلة النائمة".

الطبيب يقول يمكننا أن نحمل تلك النطفة إلى رحم بديل. يقول الطبيب إن حبة البندق تلك التي تضم بويضاتنا بذرات الحياة، كل شهر تسقط منها واحدة وتضيع حياة معها ولا نلتفت، فقط نضيق بالدماء والعرق والحرارة والدهون المتجمعة فوق الوجنتين وآلام البطن، وننسى أنها كانت حتى القريب حياة لم تكتمل، لم تنل فرصتها، ولادة مبكرة لحياة أهدرت.. حياتك يا سارة مجمدة، كحب الرمان ياقوتية بضة ندية، تحمل في مائها روحك.

يسألني هل توافقون على تكليف رحم بديل بحمل أمانة سارة وإرثها؟ هل تهبون نطفة سارة كبذرة لأرض خصبة تنمو بداخلها وتثمر روحا كروح سارة أبية على الموت؟!

حتى وهي جسد مصلوب إلى الفراش، تطلب الخلود، تطلب جذرا يمتد بها إلينا، تطلب رباطا يربطنا بها، تمد لي حبلا سريا يربطني بها من جديد، ورسالتها إليّ أن أستمع إلى همسها في شعري، ووسادتي وفوق بصمات أصابعي.. وفي بطني.. أي بطن تسع كل هذا الحب لك سوى بطني يا سارة.

فاطمة

ألقي بي في هذا العالم... ولحد اليوم يستعصي علي فهم غرابتـه، والمـشي على نظامه...

الزوج ذو القلب الرقيق الحنون، مرهف الحس والمشاعر، حلـم كـل فتـاة، شاب من عائلة ريفية، يغدق حبـه وحنانـه، واهتمامـه ولهفتـه، علـى زوجتـه صباح مساء.. ماذا وجد فيّ أنا؟

لماذا سعى إلي، وأنا الحديدية القوية، كمـا كـان يـسميني، كـان يعـشقني عشقا.. يقول هكذا!!

يتحسس مواطن رضاي وسعادتي، نهر مـن الحنـان لا يخمـد، ولا ينتظـر المقابل، يبكي إن بكيت، يسرع في صلحي إن غضبت، الهدايا والزهور والعطـور والرحلات والطعام.. ماذا حدث؟

اختنقـت بحبـه، أغـرقني... وكلمـا صـعدت إلى الـسطح، جـذب بـي إلى الأعماق. أنا من يجب عليه أن يعطي، كل هذا العطاء، أنـا الأنثـى أنـا إيـزيس، عطاؤه وصمني بنقصان أنـوثتي، دون أن يعـي سـلبني ضـعفي، الـذي تزهـو بـه النساء، وبدأت أكرهه، لا لسبب سوى أنه كلما توقفـت عـن حبـه، ازداد شـغفا بي.

غادر زوجي... أفتقده، أرتدي قميصه، أعبث بأشيائه، أريد أن يبقى كـل شيء في مكانه، تماما كما تعود... جريدته، قهوته، الوسادة التي يـضع مرفقـه فوقها في السيارة، أضعها أسفل مرفقي، أنظر للمرآة بكامل وجهـي، تمامـا كمـا كان يفعـل، لـن أسـتخدم سـوى الأنـوار الأماميـة، كإشـارات تنبيـه، لـن أفـتح الزجاج، سأستمع إلى ذات التردد، الذي تعود أن يضبط عليه الراديو...

لا يوجد شيء اسمه فراق، إنه كذبة من اختراعنا، اخترعناها لأننا لا نجيد الانتظار، فالذين يحبون لا يرحلون، هم فقط ينتظرون بصمت في الزوايا.

صباح كل جمعة، أستيقظ على صوت الماء، مندفعا إلى الحوض، على غير حاجة، أمسك أنبوب الجل أولاً، شفرة حلاقة وفوطة، بجبين مقطب، أنظر بطرف عيني في المرآة، أمرر الشفرة، وأسحب يدي بخفة، وأعاود النظر للجانب الأيمن ثم الأيسر، أترك الحوض والماء جاريا، وأقف أسفل الدش البارد، ينساب الماء فوق جروح الحلاقة، سأترك الأرض مبللة.

وأقف أمام الدولاب، أفتش عن شيء ما، أجلس إلى أوراقه، أبعثرها فوق المكتب، صورتي بين أوراقه أنظر إليها بعينيه، كم كنت أبدو جميلة...

هجرني وهكذا ينتهي العشق والشغف إلى لا شيء، مهما يا ابنتي وددت لو تحملين صفات أبيك، وتتزوجين رجلا يحمل صفات أمك، لكنني أرى فيك تمردي وشغفي، وعشقي اللامحدود فقط، حب جارف يغوي بالمزيد، من الغوص في أعماق هوى لا تعلمين مداه، وكلما غرقت ازددت عطشا وجوعا، حب يبدو فيه الخلود كرسالات الأنبياء، لكنه يحمل جينات فشله، بين أضلعه كثمرة عقيم.

أُبقي نفسي صامتة، يخيل إليّ أنني أفعل هذا لدهور، حتى أنسى طعم الكلام، وفجأة ينهار السد، وألفظ كل شيء للخارج، في نوبة هستيرية، أطلق كلماتي كالرصاص على من حولي، في كل اتجاه، حتى ربما أصبت به نفسي، كل ما احتبس بداخلي لأشهر، وربما لسنوات، يتدفق ثورة جامحة، فيضانا لا سد يعيقه، وثرثرة لا عقل لها، حين تنتهي النوبة، أسقط في قاع بئر مظلمة، ألوم نفسي، قبل أن أعود للصمت من جديد.

أنا الأستاذة الجامعية، ذات الصيت والمهابة، حتى بين الزملاء، ألقيت آلاف المحاضرات والندوات، وبين يدي وقف المئات من المريدين يستمعون

ويتعلمون، عجزت عن التواصل الروحي مع ابنتي.. مها، أي جدار زجاجي يفصل بيننا؟! أي كلمات كان عليّ أن أنطقها، ولم تخرج من فمي؟!

أي معنى لأمومتي التي حال بيني وبينها هذا الجدار.. صمت بيننا يعلو ويعلو، حتى أغرق الهواء بيننا.. تبعثرت كلماتي، وأنا أنظر إليك تحملين حقيبتك، إلى بيت زوجك، وددت أن أقول لك، أنك ياابنتي ثمرة قلبي، التي أحيا بأنفاسها لكنني لم أقلها..

الأشياء التي تأتينا متأخرة لا معنى لها، تأتي باردة، وإن أتت مضاعفة، كنت ذاهبة إلى المدرسة صباحا مع مصطفى، طلبت منه أن يشتري لي لوح شيكولاته، كنت أشم رائحتها، في بقالة عم سعيد، رغم أنها مغلفة بالسوليفان الملون، غلافها يزيد شهيتي لها، أقف أمام فاترينة الحلوى الزجاجية أتأملها، وكلما سألته عنها أشاح بوجهه، كانت النقود في بيتنا عزيزة.

أمي تعلمت التمريض في المستوصف، يطلبونها ليلا للولادات، ولتغير ضمادات الجرحى، كانت أمي مصفرة الوجه دائما، تتقيأ كل ليلة، حين كنت أذهب معها، كانت تقول لي، أريدك أن تكوني طبيبة، هل تصدقين أنني أخاف الدم؟!

أشفق عليها لأنني لم أحقق لها حلمها، أصبحت أستاذا جامعيا، يحمل لقب الدكتور، إن كان هذا يسعدها.

كان مصطفى يعمل بعد المدرسة في المصنع، ويأتي باليومية كاملة لأمي، تدبر بها يومنا التالي، وقف مصطفى أمام عم سعيد البقال، وطلب منه لوح الشيكولاته، رفض عم سعيد رغم أنه يعرف أمي، أو ربما لأنه يعرف أمي، لكن مصطفى أصر أن يأخذ الشيكولاته، ووعده أنه سيأتي له بالنقود، وضع مصطفى في يدي الشيكولاته وهو يبتسم، أخذتها من يده ولم أستطع أن آكلها، طوال اليوم أنظر إليها وأفكر ماذا سأخبر أمي؟ أخفيتها في حقيبتي، حتى لا

تراها أمي، ما إن دخلت البيت، حتى دستها في الصندوق الخشبي الكبير، في طيات جلباب أبي، في المساء سألت مصطفى، ماذا ستفعل؟ من أين ستأتي لعم سعيد بثمن الشيكولاتة؟ قال لا شأن لكِ.

صباحا لم يدخل مصطفى للمدرسة، وقفت بعد أن أوصلني أراقبه، ذهب بعيدا. ولم يخبر أمي، ولم أخبر أنا أمي. في اليوم التالي خفت أن يراني عم سعيد البقال، أو يخبر أمي، سمعته وأنا أعدو أمام دكانه، كقط هارب يناديني، كان يسألني إن كنت أريد لوح شيكولاته آخر.. كان صوته ضاحكا يخترق ظهري، حسبت أنه يسخر مني.

حكى لي مصطفى بعدها، أنه وقف أمام دار السينما، متظاهرا أنه عامل الجراج، الذي يتقاضي مقابل وقوف السيارات، قطعة معدنية عن كل سيارة، أمسك بيده اليمنى قماشة صفراء، وفي يده الأخرى بضع عملات ورقية، ممددة بين أصبعيه، كانت الفوطة الصفراء مبللة بالماء يعصرها، كان هذا كافيا لإقناع رواد السينما بموقفه، ساعة واحدة جمع فيها ما يكفي، وهرب حينما التفت إليه مراقب الجراج، وجرى خلفه.

لم أكن بعدها أسأل مصطفى، من أين تأتي بالنقود، التي تشتري بها لأمي منديل رأس حريري.. أو من أين تأتي لإخوتي بالحلاوة الشعر، في مولد السيدة نفيسة.

فقد كنت أرى الفوطة الصفراء، لا تفارق أشياءه في الغرفة، وربما وجدتها أسفل وسادته، وكانت أمي أكثر تعبا من أن تسأل أو تنتبه.

يوم ذهب مصطفى للسينما، وعلمت أمي ضربته في رأسه بالقبقاب، وسال الدم منه، كانت تظن أنه سرق ثمن تذكرة السينما، وخفت أن أخبرها أنه لم يسرق، صمت وانسكبت دموعي، وأنا أكتم جرحه بالبن، وأضمده بالخرق، وهو

يبكي ويقول، يا نينة أنا لم أترك وردية المصنع كل يوم.. اليوم عيد.. لماذا يا نينة؟

النيلة.. صبغة زرقاء، تعرفها النساء في مصر، لون زهر الغسيل التقليدى، تبدو الملابس البيضاء بعده، ضاربة للزرقة. النبات المعمر يزرع لاستخراج الصبغة من أوراقه، بعد أن تسحق، الأزرق اللون التاريخى الذى رافق الإنسانية عبر عصور نموها وتكاثر ثقافاتها، ارتبط فى مصر بالأحزان.. يقولون إن رداء الملك توت عنخ آمون، كان مصبوغا بلون النيلة الأزرق.

حكى هيرودوت أن النساء من عائلة المتوفى، كن يغطين وجوههن بالوحل أو النيلة، ويكثرن من الندب والنواح والصراخ، وقرع الصدور، ويقال بعد تحنيط المتوفى ووضعه في التابوت، كانت تجلس بجواره زوجته، وتأخذ نبات النيلة وتضعه فوق رأسه، تعلمت أمي أن تضعها في الغسيل، كان لونا مزيجا بين الأزرق والبنفسجى، يحمل مدى بالغ الاتساع من الدرجات اللونية، من الأفتح إلى الأغمق، فيوحى عبر ذلك السلم الموسيقى البصري، بألوان لا حصر لها من الشجن، النيلي الذى كان منذ قديم الأزل، لونا أصيلا وعميقا، يمكن إبصاره فى ألوان قوس قزح، هبط من السماء إلى الأرض، مزيج غير معتاد من الأزرق والأخضر، أم أنه الأزرق وقد اعتراه شيء من ألم فراق زهرته، كانت أيامنا تشبهه مقاومة للتغيير، مصبوغة بالحزن والقلق.

ترضخ الأشجار العنيقة للجذور، الجذور تتوارى في التربة، تنمو في الظلمات، تُبقي الشجرة أسيرتها منذ ولادتها، تُغذيها وتتصلب بها، ويشتد عودها، بينهما عقد غير مكتوب، لو تحررتِ تموتين. لو تحررت تموتين..

ترضخ الأشجار لها، تبيع حريتها، تسكنها الأعشاش، ولا تملك إلا الصمت، تضربها الريح، فتتوسد لها وتنحني، الأفرع تعلو وتعلو، وتبتعد عن الأرض وتنسى الجذور، تستلقي قرب سحابات ندية، لا تدري حول العقد غير

المكتوب شيئا، كيف ترضى الأفرع بالفتات، بينما يكتنز خصر الشجرة، تتمرد الفروع، تلفظها الشجرة وتبترها، وفي بترها شفاء.

مهما

ملعونة سلتك ومعجنك، ملعونة ثمرة أرضك، القوت خال من البركة، لا حصاد ولا ثمر، رسالة يحملها كل جيل، للذي يليه مفادها: أنت كأبيك لا حصاد ولا ثمر، لست سوى شفرتك الجينية، التي تحملها في دمائك ومائك، مهما سعيت وجريت ولهثت وراء مصير غير مصيرك، لن تنال إلا ما كُتب عليك سلفا.

اللعنات المتوارثة قوى شريرة خفية، يمتد أثرها لتطال أجيالا، من نفس العائلة بلا سبب، ما يحدث مع الأجداد، يتكرر بين الآباء ثم الأبناء، بلا تفسير منطقي، ميراث معنوي، زرع له جذور شريرة، أو خيرة ربما، لكنها لحكمة ما تبدو شرا، لعنة امتدت جيلا بعد جيل، عبرت سنوات، وحملت لنا معها الثمار المرة.

معاناة الآباء وفشلهم، قد يرثها الأبناء وتمتد للأحفاد.. أمراض.. خطايا.. وانهيارات أسرية، ربما لعنات مادية، عائلات بكاملها طابعها العوز المادي، وكأن ما يحصلون عليه، يسقط في كيس مثقوب، أو بئر مالحة.

جنون وعمى وحيرة قلب، ذبول نفس، وكأن الحصن الداخلي للروح خُرق، من قبل قوة مجهولة قاهرة، لعنات بالوحدة والشقاء والتشتت، أرواح تتلمس في الظهيرة طريق التيه، كما يتلمس الأعمى طريقه في الظلام.

شتات وزيجات غير موفقة، فروق واختلاف، وخيارات خاطئة، يراها الجميع إلا صاحبها، وهو لا يعرف لاختياره سببا، وكأن قوى خفية تدفعه دفعا لطريق واحد، خطوة خطوة، تتابعه وتشرف على شتاته.

صراع بين أبناء العائلة الواحدة، أبناء لا يحصد خيرهم، يذهبون في الطرقات والبحار، يموتون وحيدين في المنافي المختارة، غرباء فوق طرق غريبة، وبلدان لا تعرفهم، وأناس لا يشفقون عليهم.

وكأن قوى في الكون اجتمعت، مهمتها المقدسة بث روح النزاع، في روح كل منهم، وبيته ورزقه وعائلته، تنفث جيلا بعد جيل، لماذا تصيب اللعنات عائلة دون سواها، أو قرية دون سواها، أو بلد دون سواها؟!

في الكتاب المقدس، لا تأتي لعنة بلا سبب، ربما انزلق الأجداد في خطايا، أو كسروا وصايا الله دون توبة، لعنة فُتحت بها نافذة لقوى الشر انتقاما..

لعنة تلتهم الغض من الأولاد، الذكي منهم اللامع الجميل الموهوب، لا تلتفت للأنصاف أو التالين، ثأر ينتقي من يريد، وينتقي الأجود من الثمار ليحرقه، إن لم يولد من العائلة المنكوبة من يحمل كفن الذل ويطأطئ الهامة، إن لم يولد من يوقف اللعنة بالتوبة والانكسار، والذل أمام الخصوم أصحاب المظالم والدماء والأحقاد، أو ربما يهرب من ثأرهم وثأر لعنتهم، فتطارده القوى المنتقمة ولو إلى بلاد بعيدة لا يعرفه فيها أحد، ربما يغيب وتفقده يدها الطولى وتنسى ثأرها المستعر منه لسنوات، حتى يظن الأمن ويركن ويسالم لها، ويصبح كمن يداعب الأسد النائم ويأمنه، ما إن يطمئن حتى تهب من غفلتها كنار أوقدتها الريح بعد خمود فاستعرت، فتحرق بضراوة أشد، وتنتقم لسنوات الأمن أقسى انتقام.

تتوارث اللعنة، إن لم يولد من يلتمس طريقا غضا إلى الله، مخضبا بالتوبة والورع والزهد، ودموع الندم وترك الدنيا، إن لم تولد أضحية، أضحية تُقبل، مرضي عنها، أضحية وفداء كعروس النيل، أُضحية وفداء كأوزيريس وأخناتون.

يجلس محمد أمامي مزهوا بأحلامه، مادا ذراعيه في الهواء كجناحي الطائر المحلق، تبرق عيناه كلما نطق اسم سارة، تنظر إليه سارة بفخر، وهو يصف لنا كيف حياتهما السعيدة ستكون في كندا، كيف سيعمل ويكمل دراسته.. أين سيعيشان ومتى يمكنهما العودة إلينا..

لا يحفل بوجود ابنتي قربي، لا تحفل سارة بوجودي قربها، أنتظر حتي يتم جلسته ويذهب معتقدا انتصاره وفوزه بجولته أمامي، يقين استقاه من صمتي وصبري حتى يرحل، لأنفرد بابنتي..

نظرت إليها نظرة تعرفها، وقلت لها: لن أوافق على محمد زوجا لك، انتهى الأمر.. لا حديث بعد كلماتي.

تنظر إلي سارة بعجز، ودموعها تغطي وجهها، ونظرة العناد الوليد، التي أعرفها توشك أن تومض في عينيها..

لا معنى لرفضك، سوى أنك تريدين لي حياة تعيسة، كحياتك..

أفسدتِ حياتك وتريدين إفساد حياتي مثلك..

تنتقمين من أبي، لأنه تزوج سكرتيرته، وفضلها عليك، وأنجب منها..

تنتقمين منه في صورتي، لأنني أحمل ملامحه وصوته..

أنا أشبه أبي، في اللون والوجه والطباع، والخداع وسوء التصرف، كما كنت دوما تقولين لي..

ألهذا تريدين أن أبقى إلى جوارك، لأذكرك به، فتصبين غضبك علي بدلا منه؟!

أنا كبرت بما يكفي، لأن أختار من يسعدني... وأين يسعدني..

أرفع يدي في الهواء وأضرب وجهها، تصطدم ساعة يدي بأنفها، فينفجر اللون الأحمر ملطخا وجهها، مختلطا بالدموع وبالصراخ، وإخوتها يبكون.

تصرخ في وجهي، ابتعدي عني بجنونك.. تدفعني بكلتا يديها..

أنت مجنونة، لا أريد أن أعيش معك، سأرحل مثل أبي، وأترك لك البيت. تدمرين كل ما تلمسين، أنت سبب رحيل أبي، وستكونين سبب فراقي عن محمد، أنا أكرهك.

كنت أرتعد وأنا أنظر لوجهها الملطخ بالدماء ويدي الملوثة بدمائها، تخرج الكلمات مني بلا وعي: وأنا أيضا أكرهك، أنتِ كأبيك جاحدة.. ارحلي واذهبي إليه، لا أريدك بقربي، ولا بقرب إخوتك، اذهبي إليه ولا تعودي.

تلطخت ملابسي بالدماء، وهي تدفعني أمام إخوتها الصغار.

ألقيت كتبها على الأرض، ألقيت ملابسها في وجهها، ألقيت بعطورها وأكسواراتها في كل الغرفة، نوبة من الغضب والبكاء اجتاحتني، واللون الأحمر زاد لهيبها، ألقيت بجسدي أسفل الدش، حتى ابتلت ملابسي، جلست على الأرض في الحمام أبكي، وأنام غفوات خاطفة كالإغماءات، ورعشات كالحمى تحرق جسدي.

يومان وحلوتي سارة، تبيت أبعد من صوتي ويدي، لا أطيق النوم، ولا الطعام والهدوء، أبكي طوال الليل، في الصباح أذهب بالصغار إلى المدرسة، وأعود للبيت لأجلس بين أشياء سارة.. سارة يا ابنتي ماذا أخذت معك في حقيبتك؟

أبحث بين أشيائها وفي الأدراج، كم قطعة ملابس أخذت؟ كانت تمسك حقيبة صغيرة ربما تكفيها ليومين، أمسكت بالحقيبة وأسرعت باتجاه الباب، كانت تنتظر مني أن أعتذر لها وأحتضنها، وكنت أنتظرها بغرفتي، وسمعت صوت الباب يوصد، خرجت من بيتي، انتظرها هشام في سيارته أسفل البيت، انتظرها طويلا، كيف خرج بها من بيتي، ولم يعدها إلى.. يا هشام!!

كم بعُدت المسافات بيننا!!

متى كبرتِ يا سارة؟! كبرتِ سريعا في غفلة مني، تفاجئتُ بك تصرخين في وجهي، كم كنت قوية، أبهرني ثباتك، ربما تنتصرين يا سارة، ربما تكسرين القالب وتخرجين المارد بداخلك، وتصبحين قوية مثل جدتك.

تذكرت صرخاتي وأنا أدفع بك، لتخرجي مني إلى هذا العالم البارد، وتتركي رحمي الدافئ، كنت أدفع بكامل قوتي، وكنت تدفعين بكامل قواك لتخرجي مني، ضممت ركبتي إلى صدري العاري، ورفعت ظهري عن الفراش المبلل بعرق الولادة والدماء، وصرخت للداخل كتمت أنيني من أجلك ليدفعك ويخلصك، أمسكت المرضة برأسك وأنت تبحثين لنفسك عن مخرج يسعك، وبالكاد استطعت، مزقت طريقك وخرجت دافئة، دفقة واحدة، وألقت بك المرضة في لحظاتك الأولى فوق بطني، الخاوي المرتعش، كنت ترتعدين، أمسكت بك برفق وأسندتك المرضة إلى صدري، كنت تبحثين عن الأمن، تمتصين مني رحيقا ربما يشبعك، نظرت إليك وإذا بك قطنة بيضاء مبللة، نظرت إلى عينيك المغمضتين، ورأيت فيهما مستقبلك، وضحكاتك وفرحك، أغمضت عيني برضا وتركتك لصدري.

استيقظت وهي تربت على خدي، تطلب مني التوقيع علي أوراق فحوص للقلب لك يا سارة، كنت أجري بين الغرف مشعثة الشعر، بقميص الولادة حافية أبحث عنك وعن الطبيب، قال لي إن صوتا ما بقلبك يبعث على القلق، أي قلب كان يقصد؟ لم يزل قلبك كقلب فرخ حمام، وفي رقة ورق الورد، أي قلب يحتمل ما يحدثني عنه..

سنوات مرت وأنا أرقد إلى جوارك، أستيقظ كل الليل أو بعضه، أنصت لنبضاتك، وأسمع أنفاسك وأضع أذني فوق صدرك، لأتأكد أنك حية، هل تذكرين حين كان عمرك خمس سنوات، وقع الميزان الحديدي فوق إصبع قدمك، وكسر

إصبعك، هل تذكرين عصا الطائرة الورقية، التي كادت أن تفقدك إحدى عينيك؟!

قبل ذلك هل تذكرين صديقك الخيالي، كان يتحدث إليك في المطبخ، أثناء تناول طعامك، كنت تتركين له جانبا من الطبق يأكل منه، وتقولين لي إنني لا أستطيع أن أراه، لأنه لا يريد ذلك، وأنه وحيد لا أم له، وأنه يطير حول الجدران ويلتصق بها، ويشير إليك بوجهه لتلعبي معه، ولا يسمعه غيرك، لكنك لا تحبين ملامحه، لأنها تشبهك، لكنه يخيفك، ربما له عين واحدة ولا شعر في رأسه، ورجل واحدة، كنا نتسلى بالحديث عنه ونضحك، وكنتِ في سنتك الثالثة.

كنت أضع له أقلاما ملونة فوق الورقة مثلك، وأملأ له كوب العصير مثلك، بعد أشهر اعتقدت أنك نسيتِه، أخبرتني أنك تخافين أن يغضب منك، تقولين إن أغضبته ضربني بعصا مربوطة في بطنه تمسك ببطني أيضا، حبل سري؟! حين أخبرتني ذلك، كدت أموت رعبا عليك، من أين تأتي رأسك الصغيرة بكل هذه القصص، وأخبرت أباك لنأتي بشيخ يقرأ في البيت آيات، ويصرف الجن عنك، لكنه رفض وسخر من خيالي، الذي أصابك بالعدوى وأفسد تفكيرك، وأنتِ بكيت ورفضت لأنه يبكي، ويريد أن يبقى بقربك، ولن يرحل لأنه لا يملك بيتا، ولا عائلة له سواك، وأنه غاضب مني يتفوه بألفاظ سيئة عني، وذلك يحزنك، قالت جدتي اتركي سارة تبيت عندي واذهبي، وقالت أمي ذلك أيضا، وعدت من بيت جدتي بعد أسبوع وقد نسيتِ كل ذلك، نسيتِ الـ"هو" كما كنت تسمينه.

هل تذكرين يوم خاصمتني، بعد أن عاتبت صديقاتك في المدرسة، حين أغضبنك، طلبت مني ألا أتدخل في شئونك، هل تذكرين تجربة حبك الأول،

ابن جيراننا، الذي كتب لك رسالة قرأها أبوك وهددك بالحرمان من الخروج، وقلت لك أحبي كما تريدين ومن تريدين، ولكن فقط أعلميني أنا جزء منك..

أذكرك في محنتي مع أبوك، كنت خط دفاعه الأول، حين علمت بحب سكرتيرته، كنت تنكرين وتدافعين، وتصرين أنني أتخيل الأمر رغم يقينك، كنت تحمينني وتحمين بيتي يا سارة، وكنت أظنك لا تفهمين ألمي، وجرح كبريائي، كنت أكثر حكمة مني، كنت أما لإخوتك كثيرا يا سارة، أما بديلة حانية، وكنت أما لي.

اتصلت بمحمد تواعدنا للقاء، كان يعلم بما حدث بيني وبين سارة، جاء إليّ قلقا متوقعا ما سأقول:

أنت شاب طموح، وأنا أحبك بما يكفي.. إنك ابن خالي..

لكنني لا أوافق على زواجك من ابنتي سارة..

ربما إن بقيت بلا هجرة نفكر سويا في الأمر..

ربما أرحب بك وقتها زوجا لسارة وابنا لي..

هل أخبرت سارة بلقائنا؟

أنت بالتأكيد تعلم أنها تركت البيت.. نعم أعلم.

خروجها من بيتي، لا يعني أنني لم أعد أما لها، ولا يفقدني حقي فيها، ألا تعتقد ذلك يا محمد؟

أعلم أن محمد لن يتزوجها رغما عني، وأعلم أنها غاضبة مني، رغم ما حدث بيننا، سارة تثق فيّ وفي قراراتي، وفي قدرتي على قراءة المستقبل، على الأقل قد يستفيد من هذه الموهبة من حولي، ربما كانت وبالا عليّ وحدي.

كنت قد أوحيت لهشام بذلك مرارا، وكان يسفه ما أقول..

لا تضع أموالك في شركة واحدة..

ألقيت بكل البيض، في وعاء واحد مثقوب..

خسرت سنوات من عملك وصبرنا..

لا تجلس على الأرض تبكي يا هشام..

سنبدأ من جديد..

سنعمل معا ونعوض خسارتنا..

ما بنيناه مرة سنبنيه ثانية..

مكتب صغير غرفة واحدة وهاتف واحد، وسكرتيرة واحدة، تقوم بكل شيء.. كل شيء؟!

قامت بكل شيء يا هشام!! حتى دوري أخذته مني!!

لماذا يا هشام كنت تصر على الوقوف، بينما العالم إلى جوارك يعدو؟!

ماذا حدث لك؟!

ساعات تقضيها في المكتب بلا عمل، وساعات عمل إضافي بانتظاري، أعود بعدها للبيت منهكة، أجدك قد أعددت لي طعامي، وساعدت الأولاد في دراستهم، وأجدكم جميعا نائمين، وأجدك قد افترشت الأرض، إلى جوار سرير سارة كما تنام كل ليلة، لا أوقظك، لا أريد أن أوقظك، أخاف عليك لا أدري لذلك سببا، أم أخاف من نفسي!

يزداد حنقي وغضبي منك، يوما بعد يوم، ويزداد صمتي، ويزداد ألم معدتي، يمتلئ درج السرير المجاور لك بأقراص الدواء والمسكنات، مسكنات للرأس والبطن والظهر، مسكنات لكل الآلام، عدا آلام الروح، يتطاير راتبي كقصاصات الأوراق الملونة، التي يلهو بها الصغار، ينمو صدى خوف وصمت بيننا، عيون نصف مغلقة فوق حقيقة أن جدارا زجاجيا لا نراه، يفصل بيننا يوما بعد يوم.

ينسي هشام أعياد زواجنا، وينسى سداد الفواتير، ينقطع خط الهاتف وتنقطع الكهرباء، المدرسة تكرر اتصالها للمطالبة بسداد باقي المصروفات، قسم

الحسابات استدعى سارة ووجه لها إنذارا بالفصل، بعد يوم طويل قضته أمام مكتب مدير المدرسة، تمكث سارة في البيت أسبوعين، ريثما يدبر لها المصاريف المتأخرة، تخفي عني ما حدث، يعلم أصدقاؤها ويعلم هو ولا تخبرني أنا.

أعود من عملي كل يوم متأخرة، فأظن أنها ذهبت للمدرسة، تبتكر وتبدع في سرد الأكاذيب، واختلاق الحكايات إن سألتها، كل يوم يمر أصبح يحمل لي مزيدا من الصمت، ومزيدا من الألم، ومزيدا من الخوف.

كنت أرفض تصديق الحكاية التقليدية، الرجل الذي يمل عشرة زوجته بعد سنوات، فيتركها ويترك أبناءه، ويرحل محملا زوجته وأبناءه كل فشله، وضعفه وهزائمه وعجزه عن إيجاد حل سحري لمشاكله.

كنت طاهية ماهرة وأما لإخوتي الصغار، تزوجت هشام بعد أعوامي الجامعية، وتركت منزل أمي لأعيش سنوات زواجي الأولى مع عائلة هشام، رغم أنني من أسرة محافظة وريفية، وكان هو من أسرة تتمتع بالصيت والترف، لم أجد فرقا بين يوميات حياتي في بيت أمي، وما تلاها في بيت أهل هشام.

حلمت في صباي بحفل زفاف يضم الأصدقاء، وزفة راقصات الباليه الشهيرة وهن يحطن العروس بدلال، تمنيت حياة أسرية رومانسية دافئة مع هشام، رفض والد هشام إقامة حفل زفاف كبير، وبالتأكيد لم يوافق على الزفة الحلم، الذي طالما راودني وحفظت تفاصيله، حتى كنت أراها بعيني، رفض بحجة أنها طقوس موروثة، تخالف تقاليد أسرتهم الدينية وعاداتهم، واستسلمت واكتفيت بحفل صامت، يضم الأهل بالبيت فقط.

تزوجنا في بيت عائلته الذي تحيطه حديقة خاصة، تزرعها والدته بالورود والفل، وانتقلنا إلى شقتنا المنفصلة بعد سنة بالطابق العلوي، جنتي المغلقة علي وعلى هشام، كانت سنواتي الأولى ناعمة كرمال الشواطئ، دافئة،

كنت أعتني بالحديقة، وأعتني بهشام وأعتني بسارة، وربما كان لدي من الحب ما يكفي عائلة هشام أيضا.

والدته كانت متعلقة بسارة كثيرا، رغم وجود أحفادها من ابنتها معها بنفس البيت. لو أن القدر يمهلنا أن نمل السكينة...

خرجت في صباح ذلك اليوم، بلا هدف بسيارتي، بعد مشاجرة مع هشام تركني بسببها أبيت وحيدة، كان يرفض أن أنعزل عن أسرته كما يحلو لي، كان يقول إنني كوكب يتمرد على مداره.

كنت أقود السيارة حول البيت، بعد أن أوصلت سارة للمدرسة، تذكرت معاناتي لأكون جزءا هاما في حياة هشام، أن أكون ذلك الجزء الذي يفتقده ويبحث عنه، الأسئلة المتكررة والكلمات الجارحة، ودعاء "يخلف الله عليك ولا يحرم سارة من أخ أو أخت"، أصبح يلازمني في كل الزيارات لعائلته.

لم يمض علي زواجي سوى خمس سنوات، وسارة تكفينا. كنت أردد دوما لهشام.

الشوارع تبدو خالية والجو صحو، والفتيات بزيهن المدرسي، يعبرن الطريق أمامي، توقفت لهن وابتسمن لي، وتناوبن على الضحك فيما بينهن، تمنيت واحدة مثلهن أختا لسارة.

فوق تابلوه السيارة تأملت صورة كنت أحتفظ بها، مع أطفال المدرسة، في يوم عيد الأم مع سارة في مدرستها، وهي تمسك بالزهور، وتمسك بيد فتاة صغيرة، رتبت هي لها شعرها وملابسها قبل الصورة.

الطريق خال.. أسرع بالسيارة، أصل للطبيب قبل الوعد المحدد، وأنتظر قليلا، أتجول في الطريق على عجل، على جانب الرصيف باعة جائلون، الحركة قليلة هذا الصباح، كالنهر الراكد ما زال النهار في أوله، أنظر في مرآة السيارة الخلفية، وأتمنى لو كانت تجلس سارة الآن، في كرسيها الصغير، أنظر

عن يساري من بعيد رجلا يعبر الطريق، وهو يحمل صينية فوقها أكواب قهوة صغيرة، كان متوسط العمر، يبدو عليه الإرهاق خطواته متثاقلة، يرتدي ملابس داكنة وشبشبا، يمر من أمامي حتى اليمين، تلتقي عيناي بعينيه في لفتة خاطفة، وفي لحظة خاطفة، كانت الأكواب تتطاير، وترتطم بجانب السيارة، متناثرة في كل اتجاه، وأسمع صوت الزجاج يتكسر...

نظرت إلى يميني بفزع، الرجل ملقى أرضا، وسيارة أخرى إلى جواره، تتوقف بشكل مفاجئ أمام الرجل، متفادية دهسه ومحدثة صوتا مفزعا لفرملة مفاجئة تحرق الإسفلت.

أزيد سرعتي ولا أتوقف، لا أستطيع أن أتوقف، أخشى التورط في شيء، أو اتهامي بشيء، ولا أنظر حتى في المرآة، لأرى ما يحدث بالخلف، أكمل السير لساعة كاملة، وأنا أرتعد خوفا، أشفق علي الرجل، وأتسائل عما حدث له..

أتوقف أمام البيت.. أخيرا، أخرج من السيارة، برأسي دوار، أتلفت حولي وأدور حول السيارة، وقدماي بالكاد تحملاني، أتفحصها وأفاجأ بانسكاب القهوة على جانبها الأيمن ومرآتها، التصقت حبيبات القهوة، دليل يقسم لعيني على تورطي، أفرك حبيبات القهوة بفزع، لا أريد أن يراها أحد، وأسرع بالاتصال بهشام أحكي له شكوكي الدائرة في نفسي، هل صدمت الرجل بجانب السيارة الأيمن بعد أن ظننت أنه عبر ومر أمامي؟! لا أعلم. هل صدمته السيارة المجاورة لي، فوقع إلى جواري وتناثرت قهوته؟! لا أعلم.

يهددني هشام بعدم الحديث في الأمر مع أحد، ويقول عبارة أستغربها منه "فكري انه كلب وراح" طالما لا توجد آثار دماء لا تخافي.

أتجاهل كلماته، وأعود بسيارتي إلى حيث كان الحادث، لأبحث على الطريق عن سيارات إسعاف، أو دماء بالأرض، لكن لا أجد شيئا، كل شيء يبدو

طبيعيا وبدأ الزحام، وانسكب النهر، حركة الطريق معتادة، كما في هذا الوقت.

أبيت ليلتي مؤرقة باكية، أهذي حتى الصباح، وهشام إلى جواري، يطمئنني إلى أنه لو كان أحد ما رأني للحق بي وأوقفني.

في الصباح أقف خلف الباب، أخطف الصحيفة، أبحث في صفحات كل الجرائد عن الحادث، لا أتذكر أنني رأيت الرجل يحاول النهوض، أحاول التماسك، والصمت أمام عائلة هشام. ينهرني هشام حين يجدني أعيد غسل السيارة مرات ومرات، أرجوه الذهاب معي للبحث عن مكان القهوة، التي يعمل بها الرجل، ومحاولة تعويضه، إن كان به إصابة، وربما لديه أطفال وعائلة، يوافق مرغما بعد أن هددته أنني سأذهب وحدي.

يتأكد من جدية تهديدي، ويحاول أن يخيفني أنني غير متأكدة من شخصية الرجل، وأنه لو تعرف علي قد أتورط في الذهاب معه للشرطة، وقد تطالني يد القانون، لكنني أصمم أن أذهب للبحث عن الرجل، في مكان الحادث، فهو بالتأكيد يعمل في نفس المنطقة، أو ربما قريبا منها.

أبحث أنا وهشام عن القهوة التي ربما يعمل بها الرجل، لساعة، ونحن داخل السيارة، هشام يرفض أن يترجل، حتى لا يتعرف علينا أحد.

أبدو مضطربة يقول هشام، ولا أستطيع السيطرة على عضلات وجهي، لا يمكنني تحديد مكان القهوة، ولا تذكر ملامح الرجل، أجلس حزينة أنظر للطريق، وأحاول تذكر أي تفصيلة، رغم تحذير هشام أحاول الحديث مع أحد المارة، وسؤالهم عن قهوة قريبة، يتوقف هشام على جانب الطريق ليشتري سجائره من أحد الأكشاك، المارة لم يفيدوني بشيء، ما إن يخرج هشام حتى أجد فرصتي، أترك السيارة، وأخرج باحثة على قدمي عن القهوة وحدي.

بجانب الطريق تقف عربة من عربات الطعام، التي تستند على عجلات صغيرة لا تناسب حجمها، تحمل فوقها عدة شاي وقهوة، خلفها أطباق معدنية، إلى جوارها أكوام من سندوتشات السجق، والكبدة وحبات الطماطم.

أقف وأطلب من الرجل كوب شاي، وأجلس على المقاعد التي أعدها للزبائن، أتأمله كان متوسط العمر، يرتدي ملابس داكنة، فقدت لونها من الاتساخ ويجلس فوق العربة ابنه الصغير، يلهو معه، يتجمع حوله بعض العمال، يتناولون طعامهم، والرجل يمد يده في فم ابنه الصغير يطعمه ويعمل في نفس الوقت، أنتظره طويلا حتى يعبر الطريق أمامي حاملا صينيته، فوقها أكواب الشاي.

يتحرك بنفس الطريقة، التي رأيتها يوم الحادث، وأتأكد من خطواته أنه هو، أراقبه وهو يدلل طفله، وأشعر بحجم جريمتي، لو أنني حرمت الصغير من أبيه.

أردت تعويض الرجل لكنني خفت، أشعر أنه قد تعرف عليّ من نظراته التي تحمل الشك ولكنه لم يتكلم، أعود للسيارة، أجد هشام في قمة ثورته وغضبه.. يبحث عني

ما إن أخبره عن الرجل حتى يبدو عليه الارتياح، لتخلصه من مشكلتي، أصمم على أن يأخذ الرجل مبلغا من المال، فيوافق أن يرسل له مع أحد العمال، ويرفض أن يذهب بنفسه، ويدير المفتاح ليرحل، بعد تهديده أن الرجل سيبلغ عنا، أرفض الرحيل معه، وأخرج مبلغا من حقيبتي، وأذهب لاسترضاء الرجل.. أتجه للرجل، وأضع المال في يد الصبي، وأعتذر للرجل وأبكي.

لم أصب بسوء. هكذا قال... شاكرا ما وهبته للصبي.

يدعو لي:

"يخلف الله عليك".

الهاتف لا يصمت يرن باستمرار، وأنا أعلم أنها سارة، ولا أريد أن أرد عليها لنتشاجر ثانية.

- نعم يا سارة.

- لماذا لا تردين على الهاتف؟

- لا أريد أن نتشاجر ثانية.

- لن نتشاجر، أبلغت محمد أننا لن نتزوج، من دون موافقتك، سيسافر إلى كندا عاما ثم يعود ويلقاك، ربما تكونين بحال أفضل وقتها، وتوافقين على زواجنا.

- متي تعودين للبيت يا سارة؟

- سأقضي بعض الأيام مع أبي، زوجته تلد ويحتاجني بقربه، ستلد بنتا هكذا يقول الطبيب يريد أن يسميها... هل تعلمين معنى هذا الاسم..

- سأمر عليك مساء، أعدي حقيبتك كاملة، لن تعودي إليه قبل وقت طويل.

- نعم... ولكن لا تخبريه أنك من قرر ذلك.

في العمل تأخر الوقت، ونسيت موعد سارة، هاتفتها وطلبت منها العودة بسيارة أجرة، يدخل ممدوح إلى المكتب طالبا أوراقا، وملفات متأخرة ما زلت أعمل عليها، يجلس مستندا بمرفقيه إلى مكتبي منتظرا، مادا ساقيه أمامي، سلسلة بالرقبة غليظة، وخيوط باليد مجدولة تحيط المعصم، وشعر مصفف، ووسامة رأس فارغ من الهموم، ترف يطل من خلايا جسد طافح بهرمونات، لا تكل ولا تمل من الانسكاب أمام أي أنثى، وإن كانت أكبر سنا بعشر سنوات، يفزعني دخوله المفاجئ دائما..

نبحث سويا عن بعض الأوراق بالأدراج، يصطدم بي متعمدا أكثر من مرة، ولا يعتذر، أتجاهل ما يحدث، لينتهي الموقف بسلام، أدفع إليه بالأوراق

المطلوبة ليذهب، تمتد إلى جسدي يده، أتحرك بفزع مبتعدة عنه، تلتقي عيني بعينيه، فأرى فيهما وميض انتصار ما، أتلفت حولي ثم أنظر ليده، أعتذر أنا وأتراجع للخلف، تاركة أمامي هواء ساخنا، مشحونا بالهزيمة والغضب.

يقول الطبيب إن أحد ثديي لم يعد يحتمل الحياة، ولا بد أن يسبقني إلى التراب، من سأخبر أولا، سارة أم أمي وجدتي؟!

أود لو قمت بذلك وحدي، دون أحد، أشعر بأنني أقوى دون أن أخبر أحدا.

كل الغضب والحزن، خرج متسللا من صدري إليه، مزاجيتي وقلق روحي، ملأ قلبي حتى فاض إلى ثديي وعبأه، تلك التكتلات الخبيثة علقت بصدري، كجذور تمتد في دهاء وتتشابك وتتهامس. تلتهم صدري الذي لم يترهل بعد، علقت به كما تعلق اللُطعة بزهر القطن، النافش الأبيض..

بؤرة من الوجع والقهر تلتهمه، وتلوثه حتى ينكمش، لماذا يتخذ الغضب من ثديي موقعا له؟!

ربما تلك الأورام تتوالد، وتنتشر وأموت، لن أغضب كثيرا، لم أحب الحياة على أي حال، وقد سبقني ثديي إلى هناك.

صدري دائما كنت أثقل عليه، ليس بالحزن فقط، أعلق فوقه بروش أمي. دبوس صدر أهدته لي يوم زفافي كإرث عائلي..

الإرث العائلي قطعة نفيسة، أم مرض أو سوء طالع، ملامح بالوجه أم شفرة تتكرر؟!

كانت أمي تحب أن أهدي البروش لسارة يوم زفافها وهي بالثوب الأبيض كالملائكة، جدتي لم تهد أمي سوى قرط فلاحي، تام العيار كما يسمون الذهب الخالص، حافظت عليه في صندوق مصاغها، الذي حملته معها إلى بيت جدي، وتبدد يوما بعد يوم، حاملا معه كبرياء أسرتها، وبعض أمنها وثقتها بزوجها.

يوم مات جدي ورحلت إلى بيت خالي، تحكي جدتي أنها كانت تحمل نصف مصاغها فقط، أكملت به سنواتها لتعيش فقط مستورة، حتى تخرج أبناؤها، وتناثروا مبتعدين عنها، كفراخ تعلمت الطيران، بعد أن استنزفت الأم تماما، لكنها لم تفرط في قرطها اللامع، وبقي راقدا في صندوقه، داخل غطاء أسود مخملي، ينتظر ليلة حنة أمي ليتعلق بأذنيها، ويحكي لها همسا حكاية جدتي.

كان هلالا كبيرا متسع الدائرة، تسقط منه أهلة صغيرة، تتأرجح في حلقات تربطها بأحرف الهلال الكبير، تعبث في مدارها، محدثة همسا ما وربما حكيا ما، كان الهلال الكبير منقوشا عليه نقوش دقيقة، هي نفسها فوق الأهلة الصغيرة، يخيل إليك أن لكل هلال مداره، رغم أنها مجتمعة تشكل قرطا بأذن جدتي..

قالت جدتي كنت أنتظر تلك اللحظة، التي أعلق القرط فيها بأذني فاطمة، في ليلة حنتها..

يوم ولادتها عيرتني عمة زوجي بأغنية من التراث الفلاحي، ترددها النسوة لكيد بعضهن، إن أكلت الغيرة قلوبهن، لو وضعت إحداهن الأنثى نلن فرصتهن في التشفي بها.. يغنين:

"لما قالوا دي بنيه اتهد ركن الدار عليا"

أما أنا فقد كنت أعلم أنني وضعت بنتا مباركة، كمريم، وإن لم أسمها مريم وإنما سميتها فاطمة، كما سمى النبي محمد ابنته..

قبل أبوها رأسها، وأذن في أذنها اليمنى، وذكر اسم الله وباركها، ووافق تسميتي لها، وقال على بركة الله يا فاطنة. يا فاطنة هكذا دللها نطق اسمها بلهجته القروية، يا حبة قلبي وقلب أمك زُهيرة، كانت قرة عينه، كما كانت فاطمة قرة عين النبي محمد، وسط الزغاريد والأنوار، والنظرات والضحكات،

ليلة حنة فاطنة، كما كان يدعوها أبوها، فاطنة ويمد كثيرا في تنهيدته الأخيرة، كأنه كان يعز عليه تركك دون آهة من صدره...

كنت أبكي من الفرح، ودموعي تغطي عيني، لا أرى ثقب أذنك يا فاطنة، أحاول مرة والثانية والثالثة، حتى أضعه مكانه، وأراه مزينا وجهك وأذنك، وأقبل رأسك، وأمسحها بالمعوذتين والصمدية والصلاة على النبي، وأدعو لك كما دعت لي أمي:

"إلهي يبختلك ويحظك بحظ زينب الأميرة"

كنت أسال أمي:

من هي زينب الأميرة؟ وما أدراك أن حظها كان سعيدا؟ ألأنها كانت أميرة؟! وهل الأميرات يسعدن في حياتهن؟! هل لأنهن يتزوجن الأمراء؟! هل يبقين أميرات ويعاملن كأميرات حتى إن نسين من هن؟!

كانت أمي تقول إن جدتي صممت أن تضع القرط في أذنيها، رغم ضعف بصرها، الذي تبدد على الحزن، مثل سيدنا يعقوب النبي، غير أنها لا تنتظر قميص سيدنا يوسف، ليعيد إليها بصرها، فقد رضيت ما إن رأت جدي في الرؤيا يلبسها تاجا من اللؤلؤ الأبيض الرائق، تقول إنه كان يبتسم وفي هيئته يوم أتى لخطبتها، كان كالفرسان فوق حصانه، الذي كان في الدنيا يحبه ويطعمه بيديه، كان الحصان في عافية، تشبه عافية راكبه، رفعها جدي لتجلس أمامه لكنها تقول استحيت، وغطيت وجهي بباطن كفي، الذي رأيت فيه وجهه كمرآة، وكان يبتسم، واستيقظت من يومها راضية، لا تذكره إلا وتدعو أن يقربها الله من يوم لقائها به، تقول اكتفيت من الحياة.

علقت جدتي القرط بأيدي واهنة في أذنيها، ربما لتلتفت لحكمة ظلت ترددها: "ما عاش مالي من بعد حالي كانت أمي لا تدري، أتعني أن حياتها ترتبط بمالها!!

أم أن مالها لا يستحق الحياة إن لم يعش لها!!

- من هم مالي وحالي يا أمي؟

البروش الذهبي فوق صدري، كان مرصعا بالألماظ الحر الملون، أهداه لها أحد أبناء أمراء الخليج، الذين كانوا يتتلمذون على يديها في الجامعة، كانوا يتبعونها في أروقة المكتبات، وغرف الدراسة في الجامعة، يجلسون أمامها لساعات لتشرف على أبحاث ورسائل يسافرون بها إلى بلادهم تحمل توقيعها..

كانوا يسمعونني إطراءهم لها، ولا ينسون فضلها عليهم، لسنوات بعد رحيلهم يعودون إليها، كان بيتنا يستقبلهم في إجازات الصيف، ويحملون مؤلفاتهم وكتبهم مهداة إليها، وهدايا قيمة راقية، كانت ترد بعضا منها، وتتعفف أحيانا كثيرة، إلا هذا البروش لم تستطع مقاومة بريقه...

الطائر مغمض العينين ذو الأجنحة الملونة، أجنحته بلون زهر البنفسج، والذيل أحمر قان، والبطن ممتلئ باللون الأبيض لون الشبع، يحمل حول العينين الكبيرتين حبات ألماظ أصفر وأبيض وأسود، دقيقة رقيقة ناعمة، كحبات الرمال المتحركة، تختلط الألوان فيخيل لك أن الطائر يفتح عينيه، لبرهة وينظر لك، ثم يكتفي من النظر إليك، ويعود مغمضا...

يوم زفافي وضعته أمي فوق صدري، ويداها ترتعشان، وهي تدعو وتبسمل وتحوقل وتصلي على النبي، كنت في زفافي كزهرة القطن الأبيض، في نقائها وبراءتها وربما غفلتها، علقت أمي البروش، وحمل معه إلى صدري كل إرثها وإرث أمها، دموعهما وصبرهما، وربما دعواتهما أن أرث حظ زينب الأميرة وبختها أيضا!!

كان مرصعا بالألماظ الملون و كانت عينا الطائر مغمضتين، وتساءلت كثيرا إن كان هذا في ذاته جمالا!

زُهيرة

جلست خلف نافذتي، أتطلع للطريق الخالي، إلا من بعض السيارات والعابرين، أعيش في حي هادئ، تركت بيتي في جوار السيدة نفيسة وضجته، وتركت جيراني وأنسي معهم، كم دارت بي الأيام واعتصرتني هذه المدينة، ربما منحتني في النهاية أكثر مما توقعت...

بيت في حي راق، وفرش ثقيل لا أستطيع تحريكه، خشب داكن معتق برائحة الدهان، بقي محله الذي عليه منذ اشتريته، ستائر طبقتين لأتمكن من النوم، دولاب خشبي بعرض الحائط مكدس بالأغطية والبطاطين، علب الدواء القديمة تملأ رفا، أحب أن أحتفظ بها ربما نسيت وصفة دواء، صندوق خشب الورد صندوق شواري وأنا عروس، يجاور سريري النحاسي بأعمدته المرتفعة، ناموسيته بقماش التل الأبيض، كانت تتدلى حوله بدلال أيام كنت عروسا في داري.. كان عاليا عن الأرض، أتت لي ابنتي فاطمة بحداد قضم سيقانة، ليهبط إليّ فلم أعد قادرة على الانحناء، بالكاد أصل للحمام دون عون من أحد، سريري قضيت أكثر من نصف عمري جالسة عليه، قبري الذي فوق الأرض، جدة في الثمانين أين أذهب ولماذا أذهب؟!

منديلي الأبيض فوق رأسي لما يزيد عن أربعين عاما، أكياس الدواء والقطن الأبيض تحيط فراشي، وإلى جواري أنبوب أكسجين للطوارئ، أتت به فاطمة بعد أزمة تعرضت لها، كادت أن تريحني من أسر روحي في هذا الجسد الضيق، الهزيل المليء بالأوجاع والآلام..

أنظر في المرآة ولا أعرف وجهي المليح، كنت ست الحسن والجمال في دار أبي، كان زوجي وأبو أبنائي يدعوني: ربة الصون والعفاف.. كان ينظر إلي بحياء وهو يردد: أنت من بيوتات العائلات العريقة، ذات الصيت والنسب.

كل هذا الحسن والنسب، ولم أحظ بقيراط حظ، قيراط حظ ولا قنطار جمال صدق المثل، لم أحظ بحظ بنات القرى، كردانات تزيِّن الصدور وفدادين خضراء، ولا بحظ بنات البندر، دلال وأملاك وخدم وحشم.

تحت وسادتي مسبحة زوجي، أو إحداها، كان له صندوق مليء بالسبح، كان يقول إن يونس نبي الله أنقذه التسبيح من بطن الحوت، فسينقذنا من أهون من ذلك، فنحن لسنا في بطن الحوت، وإن ضاقت الأرض بنا.. أخذت بعضا منها لمسجد السيدة نفيسة، أخرجتها صدقة على روحه، وأبقيت بعضها حتى لا يفزع أولادي إن سمعوا طقطقاتها، وقت أذان الفجر، بعد أن تركنا جوار السيدة نفيسة لم أعد أسمعها تسبح، ولم أعد أنتبه لصوت الأذان هنا. أحب ترديد الأذان وأنا أسمعه، أتذكر صوت أبيهم وهو يعتلي المئذنة ويؤذن ظهر الجمعة، كان يصطحب مصطفى في يده.

ترقد فوقي أغطية ثقيلة؛ لا أحتمل البرد، عظامي لم تعد تحتمل البرد، لم تدفأ منذ خرجت من بيت أبي، محملة بالنفائس وشوار العروس الباهظ، المترف القادم بالبحر، المحمول إلينا فوق الأكتاف، من بضائع تجار الموانى..

أبي كان من أعيان البلدة، وشوار ابنته يجب أن ينبئ عن ثرائه، وإن كان بالصيت والمبالغة، شوار بناته بقدر عائلته بين أقرانها، عائلة أبي ذات الصيت، اسم رنان كالعلم، ما إن يذكر حتى تفتح الأبواب المغلقة، ويعتدل الجالس في مقعده، عائلة الوزراء والسفراء وأهل الصفوة..

كنت أستتر وراء ستار الهودج، في رحلة غير مريحة، فوق جمل يهتز بي يمينا وشمالا، وبجواري والدتي، موكب من الجمال يسير الهوينى، يحمل قريباتي، قريبات العروس وجهازي وسط الزغاريد والأفراح. أتيت من بيت أبي فوق الهودج، مقعد من الخشب مغطى بكساء، يخفيني تماما كالحلوى المغلفة. يكسو الهودج كله قمته وجوانبه نسيج من الحرير، مزين بالألوان والزخارف

المزركشة ومبطن، مظلة تقي من بداخلها عيون الناس، وتستر أي انكشاف لجسد العروس، جمال أخرى تحمل جهاز العروس، وكان صندوق العروس سحّارة من خشب الجوز المحلى بالصدف، داخلها أمتعة العروس.. وفيها القبقاب الذي تنتعله العروس ليلة الزفاف، يسمح لحديثة السن بأن تبدو أطول من عمرها، كنت أريد أن أبدو كاملة فارعة.

ومرآة ذات إطار من النحاس، وعلبة الزينة، وفيها كل أدوات التجميل التي تستخدمها العروس، ثم المحارم وهي منديلان من الحرير الخالص. وبقجة العروس، وكيس من القماش الفاخر المطرز بالصيرما، أو خيوط الذهب أو الفضة، وتحمل أهم ملابس العروس، والمناشف التي تتباهى بها، ثم المكحلة بين أدوات الزينة، ومحرمة النقود، وهي كيس خاص لوضع النقطة فيه عند زيارة العروس في يوم الصباحية، من الأقارب والمعارف.

في الماضي كانت تحمل العروس الذهب من بيت أبيها، كان أشكالا وألوانا ولا يقتصر على الخواتم، والغوايش والسلاسل، بل كانت قطع حلي من الرأس حتى أخمص القدم.

ستتزوج ابنة الحسب والنسب، فائرة الجسد الجميلة، ذات الخمسة عشر ربيعا، ستتزوج من صاحب أطيان ثري، يمتلك مع إخوته أجود الأراضي في الزمام، أرضه سوداء الطين ثرية خصبة، والبهائم عفية ولود، المواشي تسرح وتمرح في أرضه، يراقبها من فوق فرسه البيضاء الأصيلة، ويتحكم وإخوته بحكم الموقع المميز لأرضه، التي تتوسط أراضي الفلاحين في ري أرض جيرانه، ولذا فمهابة عائلته محفوظة بينهم.

اسم عائلتي يتوج جنيهاته الذهبية ويعززها، رأيته في يوم كتابي فقط من خلف الستائر، ووقع في قلبي بوجاهته وقفطانه، ووجهه الممتلئ وطيبة عينيه..

دخلت بيته في أول ليلة لي معه، كنت صغيرة مذعورة، لا أدري ماذا سيفعل بي، كان فرحا هادئا، يداه خشنتان من العمل في الزراعة، رغم أنفار الأرض الكثيرين الذين يعملون له، كان يعمل بيديه، كان عطوفا ودمثا يناديني من أول يوم بـ: يا بنت الأكابر.

تسكن معي بالدار عمته، كنت أناديها بـ: أمه زينب.

في سنوات زواجي الأولى، كنت خادمتها، كانت أرملة مسنة، بلا أبناء، بلا ثمر، شرسة الطبع، بلا ضحكة تنير وجهها، لكن طيبتها تغلب أذاها، كانت تتعمد إذلالي وإهانتي، إشغالي طوال النهار في الخبز والعجن، وتلطيخ وجهي وملابسي بالعجين، يصحو زوجي ويراني على هذه الحال، فأبكي أمامه، فيربت على كتفي، ويهمس لي همسا يضحكني، وأنسى ما كان منها.

ما إن كثر الأولاد حولي وبين أرجلي، وتلهّيت بهم، ما عادت بحاجة لأن تفعل هذا بي، فقد تولى القدر ذلك عنها، وعفت عني وقصر أذاها، وربما كانت تخطئ وتناديني يا ابنتي، وما إن تتذكر حتى تعود لسيرتها الأولي.

كانت أمه زينب تربي الدجاجات، لتسليتها وإدخال المتعة إلى نفسها، تقضي كثيرا من وقت فراغها، أمام عشة الدجاج، تنظّف لها بيديها، وتغلق الثغرات الصغيرة التي في جوانبه، حتى لا تدخله الفئران، تتفقّد دجاجاتها وصيصانها كل صباح، وتطمئن على وجودها سالمة، لا ينقص منها أحد ليلا.

ماأعظم سرورها وهي ترى دجاجاتها تسير تتبعها الصيصان الصفراء، حيثما سارت، ونعد لها بعض فتات الخبز، وحَبّ القمح أو الشعير، كانت تقول لي:

الدجاجة الأم قضت فترة طويلة ترقد على البيض، فسقط كثير من ريشها وأصابها الضعف والهزال، وهي الآن أشبه بالمرأة النفساء، بحاجة إلى نقاهة، وإلى مزيدٍ من الطعام، حتى تعود عافيتها، وتستردّ قوتها.

تكتسي الصيصان بالزغب الأصفر، أو الحلال كما كانت تسميه أمه زينب، تنظر إليها فإذا كان أحدها أسود اللون، تقول لي إن هذا الصوص سيكون دواءً للمَخْرُوعَة، التي أصابها خوف مفاجئ بالليل، يجعلها تبدو ساهمة كاسفة البال، ومصفرّ وجهها، وتشكو من آلام في سائر جسمها، تجلس المخروعة ويوضع على رأسها صحن، وتذبح الدجاجة فيه، ثم تطبخ وتأكل منها وحدها، ولا تدعو أحدا ليأكل معها، أما الريش وما يتبقى من الدجاجة فيدفن على مفترق الطرق، ليدوس عليه الناس في ذهابهم وإيابهم.

كان زوجي الشاب الثري، يسافر إلى المدن المجاورة أياما وليال، في البداية لبيع وشراء محاصيل وبذور.

كنت أسعد من داخلي، بما يحضره لي من كل مدينة، من أثواب حريرية زاهية الألوان، تبرق، وأمشاط شعر ملونة، وعطور في زجاجات صغيرة، روح الورد وأفراح الياسمين، مناديل وردية حريرية وأخرى بنفسجية.

كان يحب الموالد والأفراح، مال إلى بعض رفاقه يتبعهم، عاما بعد عام، حتى أصبح يأتينا كالفاكهة له مواسم، اصطحبوه إلى مشايخهم، فجذبوه يسعى خلفهم في نذور الأولياء، من شيخ لشيخ، ومن ولي لولي، ومن مدينة لأخرى..

كان يشتري حلوى لأولاده، من كل مدينة يزور فيها مشايخه، حلوى البندر والحمص وحب العزيز، والهريسة والمشبك، كان يشتري أي شيء يجده جديدا ليسعد به الأولاد، حصانا خشبي لمصطفي، وعروسة قطنية لفاطمة، كنت أتهمه بالتبذير، وأقول له: أنت مثل أبيك الحاج يدك مخرومة. لم يبق له من مال الكثير سوى أرض أبنائه.. وكان يقبل رأسي ويقول لي أعوضكم غيابي وأسعدكم.

الأماكن مثل البشر لها أعتاب، أماكن يسعد بها الجسد والروح، وأماكن تحمل لنا بذور الشقاء معها، ما إن دب برجله في تلك المدينة الساحلية، حتى

تغيرت طباعه، صار شاردا مهموما، قاسيا مع الأولاد، يغلق بابه على نفسه بالساعات ليخرج لنا منهكا صامتا.

شهر كامل في إحدى سفراته، مر علينا وحدنا، لم يعد فيه إلى الدار، حسبت أنه تزوج في تلك المدينة، بنات المدن الساحلية، مغريات غاويات، هكذا سيرتهن بيننا في القرية، لسن مثلنا، بنات الملاية اللف كما كان يقول عنهن.

وكنت أخفي عن عائلتي ما يدور ببيتي خشية غضب أبي عليه، وفضح ستر بيتي أمام أهلي.

سيعود أبوكم حاملا معه الحلوى والفرحة كما عودنا. هكذا كنت أصبر الأولاد، حتى نسوا السؤال عنه يوما بعد يوم.

وعاد.. من لا تفك طلاسم وجه زوجها من الصعب القول إنها زوجة مخلصة.

عاد ووجهه مشروخ من التعب، مرسوم عليه خيبة الأمل، هال قلبي منظره وقرع بداخلي صدى نذير شؤم، كان مهلهل الثياب متسخا، كأنه لم يستحم منذ أن رحل، أظافره متسخة، ووجهه يحمل آثار الطريق، وغبار السكك.

هذه المرة لم تكن كسابقاتها في أي شيء، لفت الخيبة روحي خرجت من روحه ودخلت إليّ، ولا أدري لذلك سببا. ولم ينطق هو بكلمة، خاوي اليدين عاد، دخل إلينا بلا حلوى، ولا ألعاب ولا فرحة، لقي أولاده متجهما بعد الغياب، لم يسلم على عمته العجوز، الراقدة في غرفتها، لا تتحرك منذ سنوات.

لم يدخل إليها ويقبل رأسها ويديها، ويطعمها كما اعتاد، ولم يهلل ويكبر وهو يقرع الباب، ولم يطل من النافذة ليرى أرضه، ولم يطلب مني أن

أصنع له الرقاق والفطير، أتى مغبرا مستترا بالليل في قفطانه، وكأنما يريد أن يكون قفطانه قطعة من الليل الأسود، تخفيه عن الناس، والأرض والكون.

في سابقات تلك المرة، كنت أخبز بعض الفطير، وأذبح دجاجتين عتاقي تكفيه وأولاده، وبيضات وبعض التمر يشبعنا، وننام هانئين قريري العين، بين أحضانه أنا وأولادي.

أصبح كثير من حكاياته يتقن تلفيقها، وكنت أبتلعها كالجحيم في جوفي، أبتسم له وأربت فوق كتفه، حصل ما حصل، كل ما يأتي من الله خير، العجلة ستدور وستعوض ما ضاع، من خسارة في بيع المحاصيل والمواشي.

هذه المرة حين عاد استلقى ساهما، في فراشه بحذائه، غط في نومه سريعا دون طعام، كان يهذي وهو نائم بالطلاسم، كان رأسه قطعة من النار، إلى جواره أبلل رأسه بالماء، وأرقيه طوال ثلاث ليال، كانت شفتاه تهمس: الفلوس.. الشيخ.. الوصول... من عرف واغترف.. الماء.. حبر الورق.. العطايا والمنح.

لما بدا عليه الشفاء، جلس نصف جلسة في فراشه، طلب مني أن أخرج من سيالة قفطانه محفظته الكبيرة الجلدية، كان وجهه منطفئا ومتعبا، أخرج لي مبلغا من المال، أقل من عشرة جنيهات، وضعها في يدي، وقال لي وهو ينظر إلى أي ركن في الغرفة إلا وجهي، هذا هو المتبقي من ثمن بيع الأرض لإخوتي، اشتروا نصيبي بالتراضي بيننا، وسددت ديونا كانت في رقبتي، لهم ولغيرهم، لطمت صدري بكلتا يدي، وبكيت وارتفع صوتي، نحيبي أسمع الأولاد، نظر إليّ نظرة لا معنى لها، وقال لي إنه متعب ويريد النوم، اذهبي بأولادك لغرفة عمتي.

لم يكن راغبا في الطعام ولا الحياة، رقد رقدته الأخيرة، ترك لي أبناءه والحسرة والعشرة جنيهات.

الأرملة ابنة الأكابر، لا يعلم سر حياتي أحد من أهلي، لم أشأ فضح زوجي، وهتك سره حيا ولا ميتا، لم يعلموا عني شيئا من قبل، ويجب ألا يعلموا الآن، وإلا أنفضح ستري بينهم، كان أبي قد مات، ولحق به أخي الأكبر، ولم يبق لي سوى أبناء أخوالي وأخي الأصغر، الذي يقيم في المدينة منذ سنوات.

ولماذا أشكو قدري لهم؟ ألأنهم اختاروه زوجا لي؟! ألم أكن سليلة الحسب والنسب الجميلة، التي كادت أن تبور من كثرة خطابها، حتى أن نساء وبنات العائلة كن يخترقنني بنظرات كالسهام المشتعلة، كلما تزوجت من تصغرني، وكانت أمي تضرب صدرها بكلتا يديها، كلما سمعت نبأ زواج إحداهن قبلي، وتدعو لي بتعديل الحظ وبياض النصيب، كانت تدعو لي "إلهي يبختلك ويحظك بحظ زينب الأميرة"

ولم يجب أن ألومهم؟ ألم يختاروا لي شابا ثريا ورث من الطين والمواشي، ما يكفي أربع زيجات وليس واحدة؟ ألم يرسلوني إلى بيته بشوار قادم من الحجاز، فوق ظهور الجمال، وآخر ركب البحار، ألم يكن رجلا في فراشي وأسقط ببطني بذرته، فكان لي منه الولد والبنت؟!

ألم يسكنني داره وينعمني فيه لسنوات، قبل أن أرى منه ما رأيت، ألم يهبني شبابه وصحته، وخيره يوم كان قادرا، لم أشكوه إذن وقد رحل؟!

ألأنه هام في الطرقات؟ يتبع ضلالاته، خلف المشايخ في الموالد والخيام، يدور بين الأضرحة ورجال الصفوة والطرق، ينثر ماله بينهم، ويبذر صحته وشبابه لرضا أعتابهم، وأعتاب من فوقهم.. ألأنه انجذب؟ وتركني كطفل تاه عن أمه، كما يحدث في تلك الموالد، التي يذهب إليها، يبسط يده الصغيرة في الفراغ يبحث عن أمه، وصراخه يصم أذنه، ودموعه تعمي عينيه؟! ألأنه ترك يدي كغريق يتشبث بالزَبد، ويظن فيه نجاته؟

ولم أشكوه؟ ولمن؟ الآن إحدى بناتي أصابتها الحمى في إحدى سفراته، ولم يسعفني حكيم القرية، وماتت ابنتي فوق ذراعي، ترتعش بين أحضاني.. وبقيت في حجري ساعات، حتى نزعوها من يدي، ودفنها أعمامها، لأن أباها هائم في الطرقات والسكك.

الجميع حولنا يعرفون أنه قد باع الأرض والمواشي، ولم يبق لنا إلا الدار، ولن يصدقني أحد، إن قلت ألا مال لدينا، وأن ما معي بالكاد أوفره لمستقبل أبنائي ولزمن لا أعرف ما يخبئ لنا.

تمنيت وأنا راحلة، نحو القطار ليهرب بي، أسير فجرا تجاه المحطة، وسط أرض كانت لأولادي يوما، تمنيت أن لو كان القفطان الذي يختفي من يلبسه، وكان يروي لنا أبوهم حكاياته حقا وصدقا، قفطان شيخ الطريقة الذي يسير فوق الماء، ويخترق ذراعه الحائط، ويشفي المرضى ويصبح التراب في يده ذهبا، قفطان الزهّاد العبّاد، القفطان المقروء عليه من أعلام وأسياد، المنقوع بماء مبارك مطلسم لمئات السنوات، القفطان الذي يجده المرضي عنهم فقط، من الإنس أو الجن، تمنيت أن لو كان القفطان حقا لأضعه فوق كتفي، وأضم أولادي بين ذراعي وإلى صدري، لنصبح كتلة واحدة تختفي عن الأعين حتى نرحل..

بحثت طويلا عن قفطان شيخه، في أشيائه ولم أجده، ولم يترك لي أمارة ترشدني إليه، ترك صندوقا خشبيا خلف السرير حملته معي، لم أجد فيه سوى أحجبة وأوراق صفراء متفرقة، وعملات قديمة، وحبوب يابسة وعشرات السبح القديمة، التي انبرى خيطها، وحملت مئات البصمات لأصابع لا أعرفها، وتقشرت حباتها الملونة وتباعدت في خيطها لتذكرني بخيباتي، ووحدتي الوشيكة، التي بدأت منذ سنوات، وربما ستطول حتى الممات.

لطم أخي ابني مصطفي على وجهه، بعد أعوام من الإقامة في بيته، والصبر على إهاناته وإهانات زوجتيه الأولى والثانية. لم تكن تلك المرة الأولى،

التي يضرب فيها أخي مصطفى، ولكنها كانت المرة الأولى، التي يدفع فيها مصطفى خاله بعيدا عنه، حتى كاد أخي أن يقع أرضا، من هول المفاجأة، ومن قوة يد مصطفي، التي تفاجأ بها.

كان مصطفى يبكي، ويصرخ في وجه أخي:

أنا لم أعد طفلا صغيرا، تهينني وتضربني، وأصبر عليك..

لست أبي لتفعل ذلك.

طرده أخي من منزله، بت ليلة كاملة أبكي وأنتقل من النافذة إلى الباب، أنظر للطريق، أبحث عنك يا مصطفى.

قال لي أخي إنه لن يسمح له بالعودة إلى بيته، بعد أن تطاول عليه، وامتدت يده إليه..

فجرا أعددت حقائبي، وجهزت أولادي للرحيل، أين أنت يا مصطفى؟

أرسلت إليه في القهوة إخوته.. فأتى إلي مسرعا، ورحلنا. لم يتمسك أخي ببقائي، كان أبناؤه يبكون، جرح مصطفى لكبريائه سيبقى بيننا طويلا..

بحثنا كثيرا عن بيت رخيص، لا نشعر فيه بالغربة، الأسعار غالية، والحال لا تبدو جيدة، ويبدو أن إقامتنا ستطول، قال لي السمسار، لن نجد طلبنا إلا في جوار السيدة نفيسة.. نفيسة العلم، كريمة الدارين.. من دوحة النبوة.. كانت رضي الله عنها مُجابة الدعوة، أظمأت نهارها بالصيام، وأقامت ليلها بالقيام يقولون، اجتهدت في العبادة، حتى أكرمها الله بكرامات عديدة.

أسعدني النبأ، وهفا قلبي إلى رفيقة الصبا، أحبها وأحب مرقدها، أتى بي زوجي إليها في عام زواجنا الأول، عاهدتها على برها وودها كلما استطعت، آل البيت أحبهم حبي للنبي الغالي، كما كانت تقول أمي، حفظني أبي كتاب الله قبل أن أتم عشر سنوات، أعلم أن النافع الضار هو الله، لا أزورها طلبا لحاجة، ولا تبركا بمقام، إنما حبا ومودة، أحدثها كالأصدقاء وتأتيني في منامي، تحكي

لي عما كان في حياتها، وتقول لي اصبري يا زهيرة نحن سيدات بيت النبوة، كتب علينا الصبر فاصبري مثلنا، لتكوني منا.

وأصحو فرحة بلقائها، ويبرد قلبي فأقرأ لها الفاتحة ولجدها.

تلتحم أجساد الصغار في الغرفة، دولاب وضعت فيه بقجة، أو بؤجة الملابس، صرة من ملاءة قديمة، بها كل ما لدينا من ملابس، لو نسيناها لتعرينا فليس لدينا سواها.

قبل أيام فاتحت مصطفى.. يجب أن تعمل يا مصطفى، في الورشة.. واليوم يجب أن أفاتحه ثانية:

مصطفى.. من الغد بعد المدرسة تذهب للورشة.

– يا نينة.. عاوز أكمل ثانوي.

– يا مصطفي تركنا بيت خالك، اشتغل السنة دي، والسنة الجاية ربما يرق قلب أعمامك ويصرفوا لنا شهرية، تعود للمدرسة..

– يا نينة.. أعمامي سرقوا الأرض والدار، أنت نسيتي.. لن يعطيك أحد شيئا، أنت تحلمين أم تكذبين عليّ؟؟

ألطمه على وجهه.. لطمات متتالية.. وأقع على الأرض..

– لا تبكي يا نينة، طوال ما أنا حي لن تُضامي، ولن تحتاجي مخلوقا.

الذي حدث مني بعد ذلك، لم يتوقعه مصطفى، كنت هادئة مستسلمة، بعد أن نام إخوته، أعددت له الطعام وبدأت أحكي له، قلت ما لم أقله من قبل، عن حكايتي مع أبيه، ربما كانت المرة الأولى، التي أفتح فيها قلبي لأحد، أو هي الثانية بعد أن تكلمت مع السيدة نفيسة، وأنا أزور مقامها بعد أن تركت داري بالبلد، وأتيت للقاهرة في بيت أخي كسيرة وحيدة، فكانت هي صدري الحنون، وصندوقي الآمن الذي ألقيت فيه كل مخاوفي.

يسخر مني مصطفى ويقول: أنتِ تحدثين الأموات يا نينة.. الوحدة أكلت عقلك.

أغضب منه وأرفض الجلوس معه، يلحق بي إلى فراشي ويتودد إلي. بدأت من النهاية، بدأت من تساؤلاتي التي لم أجد لها إجابة... لماذا حدث ماحدث؟ ضبطت نفسي، وأنا أستمر في الكلام بعدما نام مصطفى، ما زال طفلا، أشفق عليه من القادم، ظللت أحدث نفسي، وألومها بمنطق الصواب والخطأ، هكذا تتلخص كل الحكايا بالنسبة لي، في خطأ وصواب.

سارة

أمي ليست قريبة مني، بما يكفي لأخبرها، أنني ومحمد تزوجنا سرا، بعقد رسمي، وأنني أستمتع بطقوس زواجي، كلما تذكرت أنها لا تعلم عنه شيئا، أمي تعتقد أنها تسيطر على كل شيء تحبه، وتدير كل ما حولها، وأن لها القدرة أن تنقذ كل ما تستطيع، وأن الحب سبب كاف للعبث بحياة من حولك.

أمي.. برغم ما فيكِ من طباع تنافر طباعي، وخصال لا أحبها، وربما أبغضها، إلا أنني ما زلت أشفق عليك، وألتمس لك في طيات نفسي ألف عذر، حتى إن أنكرت عليك ما تفعلين، مجنونة أمي، هكذا لقبك يتردد صداه بداخلي منذ ذلك اليوم الأحمر، لم أسامحك، برغم ذلك بعض من آلامك يؤلمني، وشيء ما في قلبي ما زال يحنو عليك!

ربما لأنك مثلي امرأة وربما لأنني، ما زلت وسأبقى.. ابنتك!

أريد أن أهيم على وجهي، بلا هدف كيفا اتفق، أضحك أتكلم بما يحلو لي، وأصمت حين لا أرغب في الحديث، وحين لا يعجبني الكلام، ليتني أستطيع أن أنسى غدا، أحيا اليوم، أتسلق أسوار الحدائق، أستلقي فوق رمال الشواطئ، ألتهم طعام الفقراء الملوث بعرق الشقاء، وأشم روائح البنزين والجلود والدخان، ولم لا أدخن كعمال المصانع وألوث يدي بالزيت والشحم.. أحب أن أحيا كل الحياة، أتذوق كل ما حرمتني منه أمي، سكبت مخاوفها حارة فوقي، أحاطتني بغلافها البلاستيكي، حبستني في فقاعة حائرة، وأنا أراقبها وهي تستلقي تبكي سنواتها البائسة الضائعة في كراهية أبي، أحب محمد كما ينبغي للحب أن يكون، أحبه وسأترك له يدي يرحل بي إلى حيث يريد.

أمي لم تحب ولم تعرف كيف تحب أبي، قاسية حتى على نفسها، كراهية أبي تغلغلت في خصلات شعرها فأصبح مثلها، معلقا من أطرافه ينتظر

السقوط ليستريح، تظن أنها ستحتفظ بي كالقطط الصغيرة في الصناديق الدافئة، ككراتها الرخامية الملونة، التي تلهو بها بين أصابعها.

محمد طلب يدي من أبي وأبي وافق.. سنهيم سويا ونترك القاهرة المحتقنة بالأوجاع خلفنا، في نهار سفري، أعد حقائبي، أبتعد عن مواجهة كل ما يذكرني بأمي، يمر بي محمد، يأخذ حقائبي ليلا، في الصباح، أقبل رأسها وهي نائمة. لا أريد شجارا معك يا أمي.. لا أريدك أن تبكي.. أنت في كل حالاتك مصدر ألم لي، مثل أبي قررت هجرك والرحيل عنك كما فعل، سنوات وأنت تقولين إنني مثل أبي. حتى أصبحت حقا مثله، وربما أنا مثلك أنت أيضا.

خرجت من بيت أمي باكية، أترك طرف ثوبك، وأذهب كمن يتحسس بابا في الظلام... الظلام يحيط بالمدخل، الصغار نائمون، وأمي ليست بالبيت، الأماكن في الليل أشد قدرة على البوح بأسرارها، وكذلك نحن. أليست بعض لحظات الزمن لها طول وعرض وعمق، ولو بدت لنا مجرد لحظة، قد تقلب حياتنا طولا وعرضا، لحظة فارقة، لا نعد بعدها كما كنا قبلها، قبل لحظة...

تمضي أيامي الأولى، سعيدة متخمة بالفرح، أرسل صورا لأمي من كل مكان أذهب إليه، يهاجمني الحنين، لا تجيب أمي اتصالاتي، لا تفتح رسائلي الإلكترونية.. جدتي تقول إن أمي مريضة، ورم بالثدي أخفته عني وعنهم، أشهر من العلاج قضتها وحيدة، خطر ببالي أن أعود لها، لكنني لم أستطع التخلي عن سعادتي، هكذا ببساطة وصدق، محمد كل الحياة ورحيقها، يحملني كطفلته في كل مكان، يدللني كدميته الصغيرة، لا أذكر أننا تشاجرنا منذ أتينا إلى هنا، كلما رآني كئيبة انطلق بي إلى أماكن لم أحلم أن أراها في حياتي، يطعمني بيديه إن مرضت ويسهر إلى جواري. ليتك تسامحينني يا أمي لتكتمل سعادتي...

الماضي عند بعض الناس يكاد يكون حاضرهم، وأنا أريد أن أخلع عني حاضرا لا يخصني، لم تكن تلك حياتي، تلك التعيسة كانت حياتك أنتِ، لم

أخطط مستقبلا، بل عبرت الطريق كما يعبر الأعمى الذي تخدمه المصادفات، الحياة بيننا ليست رقا ولا شراء رقبة، أنا ملك من أحب، لم أعد دميتك.

رغم كل الفرح أحس أنني نبات مزروع، فوق قطنة مبللة، مستنبت كبذور الحلبة والفول، التي كنت أنبتها للمدرسة وأنا صغيرة، جذور ناتئة ضعيفة عمرها بعمر بلل القطنة البيضاء، تنشق قشرتي عن ذلك النتوء النابت، فأنظر إليه مزهوة، أجذر هذا فوق الأرض، أو ليست الجذور أولى بها باطن تربتها، وقلوب محبيها!

أدون لك وأنا في الطائرة، التي جاوز جلوسي فيها ٤ ساعات، وبقي الكثير لا أعلم ماذا أفعل فحظي دائما يكون مبتسما في البداية، من حيث راحة المقاعد ويبدأ بالتدرج، حتى يدخل في مرحلة السوء. فلم أستطع النوم بسبب شياطين مزعجين خلفي، فكلما دخلت في سبات النوم بدأ الصراخ، وركل الكرسي الخاص بي في ظهره، لا أحتمل الصغار، ربما أتمنى طفلا ولكنني دائما تخيلت أنه سيكون في رعايتك.

الرحلة مرهقة وأستغرب عدد العائلات الموجودة مع أطفالهم الصغار!! الوضع صعب. صراخ الأطفال لا يتوقف.. ولا مبالاة آبائهم لا تنتهي، وددت لو كان صدرك هنا، لأضع رأسي عليه، نام الأطفال في النهاية، واغتنمت الفرصة لقراءة بعض الكتب التي أحضرتها معي.

كان محمد نائما معظم الوقت، مصاب بالدوار طوال الرحلة. كان الوصول إلى تورنتو في سيارة ليموزين، استأجرها لنا أحد أصدقائه لتدليلنا، في يوم زواجنا الأول وكنت في أمس الحاجة لبعض الدلال.

سأبدأ بكتابة أحداثي وبعض يومياتي لك عن كندا، وبالتحديد الكثير عن فانكوفير والقليل عن تورنتو أكبر مدينة كندية. الكثير من اليوميات والأحداث والصور ستصل إليك، ومغامراتنا المختلفة سأرسل لك صورها بالبريد الإلكتروني.

أجمل ما رأت عيني، ولا أظن أنني سأرى جمالا يوازي هذا الجمال، في بقاع أخرى في هذه الأرض. ستشاهدين صورا لما رأيته بعيني، لن تصدقي موعد سفري كان ليلا. لا أخفيك كان شعورا ممزوجا بفرح ورهبة وخوف من هذا الموقف، فهي المرة الأولى التي أسافر فيها، على عدة رحلات وغير هذا كله مدة الرحلة إلى تورنتو ١٥ ساعة في الجو، وبعدها إلى فانكوفير تسع ساعات!! مخيفة بعض الشيء!! لكن كما قال محمد لي إن هذه الرحلة ستحمل في طياتها الكثير من خبرات الحياة، وخاصة أننا في بلد تختلف عاداتهم وتقاليدهم عنّا، فهي لن تكون كالبلدان العربية، التي زرتها من قبل مع أبي، وستوسع مداركي، وخبراتي بالحياة أكثر وأكثر كندا في القارة الأمريكية الشمالية، وهي قريبة من حلمي المشترك مع الكثيرين، وهو زيارة أمريكا. في البداية سأزور تورنتو وسأبقى فيها ٥ أيام فقط، وبعدها إلى فانكوفير. مشكلة السكن بدأت لحظة وصولنا، فكثرة الفنادق والأسعار المتفاوتة تحيّر، كنت أريد أن تكون قريبه من الداون تاون أو وسط المدينة لأسباب عدة، منها رؤية وسط المدينة، وتوفير احتياجاتي وتوفير نفقات التنقل.. في النهاية تكرم أحد أصدقاء محمد من عائلة لبنانية، وكلم عائلته على أن أسكن لديهم فوافقوا على الفور، تعلمت بعض فنون تقديم الطعام منهم، وأبدلت طريقة عنايتي بشعري وأظافري لتكون مثلهم، أود لو أتعلم ضحكة تلك المرأة الفاتنة في الخمسين، لكنها تبدو أكثر أنوثة وحبا للحياة مني.

كان محمد قد اتفق معها على الحساب، في حدود ٢٠ دولارا لليلة الواحدة. لكن بعدها اكتشفنا أن بإمكاننا أن نجد أسرا أخرى، تقبل بقاء الشباب عندها، وبأسعار أكثر مناسبة، في النهاية تمت الموافقة على أن أسكن مع محمد في غرفة واسعة، فيها سرير ودولابان، ومكتب خشبي قديم الطراز، دهان الغرفة كان باللون الأبيض، وستائرها وردية بأزهار حمراء، سأرسل لكِ صورها.

هل تصدقين؟! أثناء الرحلة ١٥ ساعة بين الأرض والسماء، كنت أنظر إلى زجاج النافذة فأرى وجهك، وأتذكر حين كنت وأنا صغيرة، تقولين لي إن لديك تلك القدرة على الطواف، والسفر والتحليق بروحك حيث أبناؤك فقط، وأن الكثيرين ممن يتمتعون بتلك الموهبة، يدربون أرواحهم لتخترق الحجب، لكنك لا تريدين الطواف بروحك إلا حولنا فقط. أنا وإخوتي.. هل تذكرين صديقي الخيالي.. الـ "هو"؟ أتمنى لو كان معي الآن ليؤنسني، لأدهشك أنا أيضا يمكنني الطواف بروحي حولك، أعلم أنك الآن تجلسين في بيت جدتي، تطرزين مفرشا بورود حمراء بارزة، وتمسكين بطرف الخيط الأحمر ولا تستطيعين إدخاله في الإبرة، وتنادين جدتي لتساعدك، أمزح معك.. أنا أفتقدك فقط وأحلم بكِ.

صديق محمد يعيش مع عائلته، في حي هادئ بألوان خضراء، بعيدا عن مركز المدينة، كيف لبقعة واحدة من بقاع الأرض، أن تحمل كل هذا الجمال وحدها!

العائلة أكثر من رائعة، والجيران طيبون.. مسالون.. تعلمت منهم السكينة، معظم أولادهم خجلون، كأبناء القرى، ويحتاجون إلى من يتكلم معهم، كنت أدخل معهم في ثرثرات، مثل التي كنت تفعلين، حين تشعرين بالزهو بذاتك أمام أبي وعائلته، كنت أتحدث معهم، بلا خجل في كل شيء، كنت أحكي عنك وعن أبي وعن جدتي، رغم أن مشكلتي التي كانت تخيفك، كانت التواصل مع من لا أعرف، لكنني هنا بينهم وجدت سلامي الخاص.

يوم رحيلي من بيتهم، أعطيت لأب العائلة إحدى سبح جدي، من الأحجار الملونة الزرقاء، كانت جدتي قد أهدتها لي، وأهديت للأم جلابية ريفية اشتريتها في أيامي الأخيرة قبل سفري، تمنيت لو كنت معي، وأنا أشتري تلك الهدايا. سأرسل لك بعض الصور للأم، وهي ترتدي الجلابية وترقص بها.

الجو هنا وكأن الفصول تتغير، من فصل صيف حار جدا إلى شتاء بارد جدا مع أمطار، تجعل الأشجار تلمع وتبرق، تزيد لنا جمالها، منظرها أكثر من رائع، يذكرني برحلاتنا معا، قبل أن يتركنا أبي، حين كنا عائلة واحدة وكنت تصرين أن نستيقظ مبكرا، لنسير إلى جوار الأشجار، وهي تتنفس الصباح، ونستنشق زفيرها...

خرجت في الصباح الباكر بعد أن خفت الأمطار، ذهبت وحدي إلى الكافيتريا المجاورة للطريق، أخذت دونات وقهوة سوداء كما أحبها، ورجعت للبيت، خوفا من الضياع، لأنني وبكل بساطة أخشى الضياع، حيث قد لا يجدني أحد، ربما أشعر ببعض الضياع دونك... عدت وكان محمد ما زال نائما.

خرجنا أنا ومحمد من الساعة ١٢ مساء، ولم نرجع للبيت إلى الساعة ٩ مساء. ذهبنا إلى برج عال، أول مره في حياتي أذهب لأماكن مرتفعة هكذا، كانت تجربة أكثر من رائعة، ولاحظت على نفسي عدم الخوف من الأماكن المرتفعة. وسأرسل بعض الصور، لماذا لا تردين علي يا أمي، أفتقد تعليقاتك المرحة.

في البرج غرفة صغيرة، في أعلى البرج، ندخل مصعدا ينقلنا إليها، غرفة ذات أرض زجاجية ترى ما تحت قدميك، وما تحت قدميك قد يكون مرعبا لك تنظرين إلى السماء، والمصعد على ارتفاع شاهق جدا، فيخيل إليك أنك تلمسين السماء السابعة.

في البداية خفت خوفا شديدا، وبدأت الأفكار تنهال على رأسي، وجلست ألعب مع نفسي لعبة افرض ومن المحتمل أن التي كنت تعلميها لنا، حتى لا نفاجأ ولا ندع شيئا للمصادفة.

افرض أن الزجاج انكسر، افرض أنهم لم يثبتوه جيدا، وافرض وافرض، حتى خرجنا، سالين. من الممكن حين تأتين إلى هنا أن تستلقي على ظهرك،

تنامين على الأرض، وتلتقطي صورا جميلة، وتكون خلفيتك هذا الارتفاع العالي.

أرسل لك صورا على ارتفاع عال جدا، سترين فيها مباني تورنتو.

في المصعد قابلت سيدة عجوزا، في الثمانين تقريبا، لكنها تتحرك بعفوية الشباب، تلمع عيونها الزرقاء بلون البحر، وترتدي ألوانا محبة للحياة مشرقة، تذكرت نينة زهيرة وحياتها في الرداء الأسود، كانت السيدة خائفة جدا من الارتفاع، اقتربت منها وقلت لها أنت خائفة؟ قالت نعم... وهي ترتعش وأمسكت بيدي، ضحكت وقلت لها نأخذ صورة على هذا الارتفاع، كانت خائفة في البداية ولكن بعد إصرار وضحك، قالت لي بإنجليزية متكسرة، افرض أن الزجاج انكسر، أو أنهم لم يثبتوه جيدا!!

هل أضحكتك يا أمي ولو للحظات، أتمنى هذا. متى تسامحينني؟!

أتنقل مع محمد بالسيارة، من ولاية إلى ولاية، بحثا عن عمل، أحب السفر معه، وعكاتي الصحية تتكرر، لكنني لا أتوقف عن التشبث به، وكأنه تربتي الجديدة الندية، التي أطلق فيها جذوري، في ليالي البرد العاصف ننام في السيارة، أرقد بين أحضانه وأحلم بكم، من كل ولاية أرسل لك صورة وكلمتين، ليتك تأتين.

شكرت الله من الأعماق، أن وجدت بعض الأصدقاء، الذين كانوا متواجدين من قبل، ويعرفون المدينة بكل ما فيها جيدا، محلات الملابس والطعام، وكانوا يقفون كل صباح لوداعي، ولتخفيف بعض القلق عني، وأنا ذاهبة مع محمد للبحث عن عمل لم تكن وظائفنا مثالية أو حتى جيدة، فقد عملت مدخلة بيانات، وهي وظيفة تجبرني على الجلوس إلى الكومبيوتر لمدة ٨ ساعات يوميا بلا حراك، وتجني ما هو أكثر قليلا من الحد الأدنى من الأجر، أما محمد فقد كانت كل وظيفته هي أن يقلب الهامبورجر في مطعم للوجبات السريعة، لسنا

سعداء بهذا العمل فكلانا كان يعمل مديرا في بلدنا وكنا نرأس ١٠٠ موظف على الأقل هناك.

وبالرغم من قبولنا بتلك الوظائف البسيطة، لا نجني من المال ما هو كاف لتغطية مصاريفنا، نضطر للاستعانة بجزء من مدخراتنا. إيجار البيت، الفواتير، المواصلات والبقالة، تستهلك كل مرتباتنا. اضطررت للعمل بضع ساعات في رعاية الأطفال، كنت أعمل جليسة أطفال لدى الأسر العربية. أصبحنا بالكاد يرى أحدنا الآخر. عيناي تدمعان أحيانا، وأنا أعدو في الشارع لأذهب إلى العمل، في الوقت المحدد. ومع ذلك حاولت جهدي أن أبدو باسمة أمام محمد.

ما يقلقني هو أننا نقضي وقتا محدودا للغاية معا، وكنت أرى أننا نستحق قضاء وقت أطول معا، ولذا قررت أن أعمل نصف وقت، بينما يعمل محمد يوما إضافيا في الأسبوع.

أعمل ١٢ ساعة يوميا ستة أيام أسبوعيا. ومع ذلك أنا سعيدة لأنني أعتقد أن حياتنا قد استقرت، وسوف تتحسن وأرجو ألا أكون مخطئة..

أرسل لك بعض أشعار نزار قباني النادرة، عثرت على كتاب له نادر الطبعة، سأرسله لك بالبريد، أعلم أنك تعشقين أبياته وكلماته.

شعرت يا أمي حين تركت العمل أنني سيئة الحظ، استشعرت ندما على قرار الهجرة، وكنت أريد الاستسلام. فكيف لنا أن نتحمل مصاريف أطفال إن أردنا؟

هل وصلك ديوان الشعر بالبريد، وأزهاري المجففة بداخل صفحاته، أرجو أن تحتفظي بها فقد اخترت زهور الليلك البنفسجية، لونك المفضل وزهرتك المفضلة..

لا داعي للقول إن حالتنا ساءت أكثر، وانتقلنا من منزل إلى آخر أصغر، حتى انتهى بنا الحال إلى غرفة واحدة. لكن وسط كل هذه المعاناة خطرت لي فكرة، ماذا لو كان ترك محمد للعمل يحمل إشارة من الله أنني محظوظة، لا بد

أنني إنسانة مميزة ليختصني الله بكل هذا الحب من حولي، أنت ومحمد وأبي وجدتي.

أنظر إلى الأشياء الجيدة في حياتي، فأدرك أنني كنت أعمل بإخلاص في وظيفتي البسيطة، كمدخلة بيانات، بالجريدة الالكترونة التي أعمل بها. أتقنت العمل أكثر لدرجة جعلت صاحب العمل يستغني عن الإشراف عليّ، بل يعينني مشرفا على الآخرين. بالمنصب الجديد أصبحت أجني من المال ما يكفي لقضاء نزهة مميزة بعطلة الأسبوع باستقالة محمد من وظيفته، بدأ دراسة منزلية، تمكنه من المكوث في المنزل لساعات وحيدا متفرغا للدراسة.

كانت الاستقالة من وظائفنا في مصر خطأ كبيرا، فكلانا كان يعمل في شركة لديها فروع في كندا. كان بإمكاننا إعلام الشركة برغبتنا في الهجرة إلى كندا لنقلنا لفرع الشركة هناك بعد كل هذا الصمت تجيبينني بكلمة واحدة... عودي للبيت... هكذا وفقط، كيف أعود، الآن أنا امرأة متزوجة وعلي التزامات، كيف أتخلى عن محمد؟! أنا زوجته وأمه، ورفيقته وشريكته، ألم يكن درسك الأول والدائم لي، المثابرة حتى النهاية، القتال من أجل من نحب، ألا نستسلم ولا ننهزم حتى ننال احترام القدر.

سأسافر مع محمد وأترك عملي، يريد أن يبحث عن جامعة أخرى، يقدم لها أوراقه ويدرس موادا مختلفة.

محمد لم يخذلني لأخذله، محمد لم يخذلني كما خذلك أبي.

مها

الآن أدركت كيف يكون الإنسان سعيدا.. كلما كان الفقد في حياته أعظم، ولم يبق له ما يخشى عليه، ويحمل همه، ولذلك أدَّعى أن لحظة الموت من أكثر اللحظات استسلاما وطمأنينة، كنت كلما فقدت شيئا، ظننت أنها أكبر أحزاني، وأنني سأموت بعدها ولن أحتمل، حتى تذوقت الفقد الأعظم، الذي أنساني كل ما سبقه من ألم.. نأتي إلى هذا العالم لاكتساب الخبرات، وتعلم الدرس، ومع كل ولادة توضع مسئولية ما، على كتف شخص ما.

كيف تستطيع الوجوه التي تغلفها الطيبة، أن تخفي أسرارا ليست بتلك الطيبة، كيف تستطيع الأيام أن تخفي أسرار تدميرنا، في لحظات مختارة قصيرة، نحياها ولا ندري أنها ستحمل لنا كل هذا الألم وتتركه لنا وترحل.

متي تستيقظين يا سارة؟! ابنتي الجميلة النائمة كنت أدعوك بالجميلة النائمة منذ ولادتك، كنت تنامين كثيرا كالملائكة، تحلمين وتبتسمين، وكنت كبطلة تلك القصة أسطورية تشبهينها، نامت مسحورة تنتظر أميرها، ليوقظها بقبلة، تنتظر راقدة في صندوقها الزجاجي، حولها الأقزام السبعة، أصدقاؤها يبكون ويبتهلون.. في سلام كانت تنتظر، لماذا أطلقت عليك هذا اللقب؟ ربما جلبت لك الحظ التعس!

ذات الشعر الأحمر.. كنت أدعوك بهذا اللقب أيضا، كنت جميلة، مثل بطلة تلك القصة تغني ليل نهار، روحها شاردة محلقة شفيفة، تاهت في الغابة لما عصت أمها، ضاعت بين الأشجار العالية المتشابكة، كثيفة الأغصان، كانت ترتدي رداء أحمر، وشعرها أحمر، وحذاؤها أحمر، وصوتها عذب ينصت له حتى الجماد، لم يشفع لها جمالها، ولا عذوبة صوتها، ولا غرام الطيور بها

والتهمها الذئب، لماذا أطلقت عليك هذا اللقب أيضا؟ هل كنت أدري أنك ستضيعين، وأن الذئب سيلتهمك، وسأفقدك إلى الأبد؟

سأظل جالسة إلى جوار فراشك في المستشفى، وإن طالت جلستي، حتى نهاية عمري، غيبوبتك طالت يا سارة.

كتب عليك يا ابنتي، أن تصارعي الموت والحياة، في آن واحد..

زارتني بالأمس إحدى المريضات السودانيات، اسمها نجوى أيوب في الغرفة المجاورة لك، شابة جميلة سمراء دقيقة الملامح، عميقة العينين، فنانة تشكيلية، كانت ترتدي زيها السوداني، وتفخر به وعلمتني كيف أرتديه، وألفه حول جسدي مثلها، كل أثوابنا تلتف حولنا، من القماط في اللفة الأولى، بعد الولادة إلى الكفن والثوب الأخير، هكذا قالت، ترى الحياة مشاهد تتوالى بين أثواب تُشَد على أجسادنا.

أرتني لوحاتها ونحن نتسامر، وأنت نائمة إلى جوارنا، تمنيت لو كنت مستيقظة، لكنك لو كنت مستيقظة، لما اهتمت بي، ولما أتت لزيارتي.

حكيت لها كيف علمت بحادثتك، وكيف أتيت بالطائرة، وكيف أنني قبل أن يتصل خالي مصطفى ويبلغني النبأ كنت أرتدي ثيابي على عجل، وأمي تسألني ماذا تفعلين في منتصف الليل، كنت أبكي وأقول لها شيء ما يجثم على صدري، أحضرت المفرش الذي كنت أطرزه، بالورود الحمراء البارزة معي، وإبرتين واحدة لي وواحدة لك، كما كنا نفعل دائما، أنت تطرزين واحدة وتتركين لي واحدة.

أمسكت نجوى بكفك، وقالت إنك بخيتة.. محظوظة.. أو ربما كفك قال لها ذلك.. في أي جانب كان حظها؟! سألتها.

قالت ربما أن لها أما لها قلبك. ابتسمت لمجاملتها لي.

حكت لي أنها أصيبت في حادث سيارة أيضا منذ أشهر، وسقطت في غيبوبتها شهرا كاملا، استفاقت بعده، فاقدة نصف ذاكرتها، وإلى الآن مرت أشهر وهي بالمستشفى، وحولها عائلتها يساعدونها لتتذكر، تقول إنها كانت في نوم عميق، لكنها تشعر بكل ألم، وتسمع من حولها، لكنها لا تستطيع تحريك أطرافها، دبيب كدبيب النمل كان يمسك أطرافها، ثقيلة مخدرة، ورأسها كالحجر، ملقى فوق الوسادة، تنظر لنفسها من خارج جسدها، فترى كومة من اللحم عديمة الفائدة، لكن روحها كانت تهفو للحياة، ولا تستطيع سوى أن تظل هائمة، معلقة بالزائرين ربما يحكون لها ما يطمئنها..

قالت لي أنها أصبحت ترى أشياء تتحقق، وتسمع أصواتا لا يسمعها غيرها وتخاطبهم ويردون عليها، من مكان ما، ولم يعد هذا يفزعها.

قالت لي نجوى ما أسعدني وأبكاني، قالت لي سارة ستكون لها ابنة تشبهك، أنا أعلم أن هذا لن يسعدك، فأنت تكرهين ضعفي ونقصاني وأخطائي، ربما ستشبهني في الشكل فقط، ربما ترث عيني البنيتين، وبشرتي الخمرية ووجهي المستطيل، وأفخاذي الممتلئة، ندبات الروح لا تورث يا سارة، فلا تخافي ستكون ابنتك أنت، وتحمل طباعك الجسورة، وعذوبتك وصبرك على الدنيا، وقلبك الذي يسع العالم، ستتعلم منك أن تعلم ما تريد، وتأخذه رغما عن الكون كله..

نجوى أيوب تعجبت لاسمها، لكل منا من اسمه نصيب حقا، نجوى وهمسها لعوالم لا نراها ثم أيوب نبي الله وصبره على البلاء.

أخاف أن تسمعينني وأنا أتحدث للطبيب عنك، فأخرج أنا إليه خارج الغرفة، وينظر إليّ هو بدهشة واستنكار، كما ينظر لطفل يلهو بالكبريت بعيدا عن أمه، كيف يكون الطبيب ضيق الأفق هكذا!

توفي محمد أمس يا سارة، وبكى خالي مصطفى كثيرا.. لا يمكنني اختيار كلمات عزاء لك، أعلم كيف كان حبك له، وأعلم أنني لا أريدك أن تذهبي خلفه.

لماذا لم نكن صديقتين.. لماذا نفقد بالوقت إدراك ما نحتاج حقا؟!

كنت ترسلين لي صورك الباسمة، وكنت أتلقفها كانتظارك للحلوى وأنت صغيرة، لكنني كنت غاضبة وحزينة ومريضة، لم يكن بقلبي متسع لأخرج منه ما يفيض بداخله، من شوق وألم فرقة وحرقة بتر، أنت أدخلتني بغيابك عالم المسنين رغما عني، كنت أعيش من خلالك عمرا آخر حين أقرأ رسائلك، أنظر فيها للحياة بعينيك، وجدتني أنظر للمرآة، وأرى نفسي على حقيقتها.

لم أنتبه منذ أعوام إلى أنني كبرت، ربما سأصبح جدة قريبا، كان فطامي منك وكان رغما عني، أدركت أنني طفلة كبيرة، أريد التشبث بك لأنك كل عالمي.

كل صباح أجوب الشوارع المحيطة بالمستشفى الكبير، في قلب المدينة، أترك نفسي للطريق، وكأنك معي كأنك خلفي، أصطحبك لأسري عنك، أعبر إشارات مرور، أدور في دوائر، أسير في خطوط متعامدة متقاطعة، أسلكها مختارة، ثم أعاود السير فيها مجددا.. تقودني قدماي بلا وعي بالمكان، أصل بوابة المستشفى، فأقف أمام المدخل، أبتهل إلى الله وأقرأ كتابه، وأدعوه أن أدخل إلى غرفتك، فأراك جالسة في فراشك، مستيقظة تحركين عينيك، عينيك فقط، أود لو يمنحني الله فرصة أخيرة، أثبت لك فيها أنني أستطيع حمايتك..

أجوب ممرات الطابق السادس، حيث تجوب روحك، وأشعر بها حولي، بحثا عن طبيبك أنتقل بين الغرف، هل حقا كما قالت المرأة، إنك تتعلقين بي كظلي، تتحركين معي كطفل بين ساقي، كما كنت تفعلين وأنت صغيرة!

كنت طفلة هادئة يا سارة، تتشبثين بثوبي وأنا أسير، وتتبعينني في كل حركة، مرات كنت تسقطين وتتشابك أقدامك، وكنت أنهرك، كنت أغضب..

كنت أركض ولا أدري لماذا!

كنت أريدك أن تركضي مثلي، كنت أريدك أن تتركي ثوبي، وتستقلي عني..

كنت أتعجل ابتعادك عني.. لماذا؟!

الآن أمسكي بطرف ثوبي يا سارة، ما أسعدني لو تفعلين!

لو أشعر بقبضتك، أو كفك الصغيرة تعود فتلامس ركبتي، لو تسقطيني وأنا أسير متعجلة، بينما تتعثرين أمامي.

تشبثي بالحياة وبملابسي، وتلعثمي وأنت تنطقين باسمي، وأسمعيني أي صوت، وإن كان نداءك على أبيك أو محمد.

أطلب من طبيبك تفسيرات لا تنتهي، يكرر أجوبته أولا بلا ملل، ثم يتلفت حوله بحثا عمن ينقذه مني، وينظر في ساعته بلا انفعال، وبوجه كالشمع يملي عليّ، ما أسمعني إياه سابقا عشرات المرات.

جسدك بين يدي هذا الرجل، لكن روحك بين يدي الله، إن شاء ردها إلى جسدك. هذا الطبيب أحمر الشعر، لا يملك لنا إلا ما قدره الله علينا، يُسمعني أرقاما عن جسدك المصلوب وتحليلاته، البعض من مرضاه يستفيقون، والبعض يمضون نحو الموت في صمت، روحك قوية يا سارة، لولا تلك القوة لفارقت الحياة.

منذ سنواتك الأولى، يوم سافرنا إلى الهند لطبيب مختص، يرى قلبك الصغير ويسمع صوته الخفي، كنت أرضعك طرف ثديي، ليتوقف صراخك، ويستطيع الطبيب أن يكمل فحصه بالأجهزة، والصبغات والأسلاك، وكنت لا تهدئين من الخوف، وبرد أصابعه وغلظة أصابع مساعدته، ضاق الوقت بالطبيب، كاد أن يتركك لموعد آخر، أفسحت لنفسي مجالا فوق سريرك، نهرتني مساعدته، لكن الطبيب بإشارة من رأسه سمح لي، أمسكت أصابعك

الصغيرة، فتشبثت بي وربما تشبثت أنا بك أيضا، رددت كلماتنا معا ألحاننا، هذا غناء الملائكة قال الطبيب.

كان يستمع إلى صوت تدفق الدم في عروقك، وينصت لك ويراقب صمامات قلبك الغض الصغير بشغف، وكنت تبكين حتي وضعت طرف إصبعي فوق شفاهك، وغنيت لك، كنت أصدر أصواتا، لا أعلم من أين تأتي، كنت أدور برأسي فتدور عيناك معي، وأرتل آيات منغمة، وأنا أبتهل إلى الله أن يتم الطبيب فحصه ويطمئنني. كان يختلس النظر إليّ كلما استطاع، ينظر إلى وجعي وفمي الممتلئ بتراتيل تعرفينها، تحفظينها، علمتها لك منذ كنت في بطني نطفة.

غناء الملائكة.. قال لي ليتني سجلت هذا المشهد بالفيديو، وأريته طلابي، حياني برأسه تحية تقاليده الهندية، وابتسم وطمأنني على قلبك.

سأحكي لك يا ابنتي كل الحكايا، التي لم أنطقها من قبل، سأحكي لك عن الفقد المفاجئ وما يفعله بالروح.

هل تعلمين كيف يموت الإنسان وهو حي؟! يموت جزءا بعد جزء، كلما فقد عزيزا، ماتت من روحه قطعة، وكلما انطفأ نور مصباحها، تبقى في الروح بقعة مظلمة داكنة، وكلما جاورتها قطعة مظلمة تالية لها، أظلمت روحه واقترب من الموت أكثر.

هل تعلمين ما تفعل المفاجأة! تطفئ مصباحين دفعة واحدة، مصباح ما فقدت ومصباح السكينة والطمأنينة، كمن يتوقع ضربة في الظلام لا يعلم من أين شق تأتيه!

ثم... الفقد

كنت أفزع من نومي، مشعثة الرأس، بعيون هلعة، وأقدام حافية أبكي، وأدور في البيت ملتاعة، أبحث عن أمي.

جدتك فاطمة كانت قد سافرت للدكتوراه، وتركتني لجدتي.. هل تصدقين؟! سافرت فجأة وبلا استئذان، وعادت بعد سنوات، ومعها شهادة عالية ممهورة من أعظم الجامعات، توثق أنها حصلت على درجة علمية متميزة، لا يصل إليها إلا النبهاء، كانت ترسل لي خطابات ونقودا، تسأل جدتي عني طعامي ومدرستي وصديقاتي وأمهاتهن، كيف أنام ومتى يستدير جسدي، لماذا تعثرت هرموناتي واستعصى عليها الظهور، في أي أثر وإن كان حبة في وجهي؟!

كنت أخفي عنهما اكتمال أنوثتي، وأسأل صديقاتي بدلا من جدتي، لم أسألها؛ فقد كانت مقاطعتي لها امتدادا لعقوبة أقررتها على أمي، إثر محاكمة صامتة، كنت فيها القاضي والجلاد، قضت المحكمة بغير مداولة، بإزاحة كل منهما إلى ركن مظلم، في أعمق غرف عقلي، ركن يبقيهما بلا صوت أسمعه وإن صرختا، ركن أفرض فيه قوانيني وشروطي، لا يسمع فيه صوت إلا بإرادتي.

ثم...

لماذا فقدت طفولتي فجأة أيضا؟! لماذا ذهب الطهر عن جسدي؟!

لماذا أصبت بالدماء، وتلوثت بجرح لا أدري مكانه؟!

جرح في بطني أم بأحشائي!

إن كان مميتا فسأموت غاضبة، وإن كان كما حكت صديقاتي، وقرأت في القصاصات التي يحملنها في جيوبهن، فقد ودعت طفولتي، رغما عني وبلا استئذان إلى أنوثة غير مرحب بها.

الحبوب في وجهي فضحتني أمام صديقاتي وجدتي، جدتي تتشمم رائحة عرقي كل صباح، وتعيد عليّ السؤال نفسه، كانت تفتش ملابسي الداخلية وتطمئن أمي في الهاتف، أسمعها وكل من بالبيت يسمع حكايتي، كيف فقدت خصوصيتي وانتهكت هكذا؟! فجأة أيضا خلاف ما كان سائدا بين صديقاتي، رفضت أمي ختاني، ورفضت أنا ختانك يا ابنتي.

هل كان هذا ليحدث فارقا؟!

ربما لو نُزعت تلك القطعة الحمراء، وسط صراخي، وحملتها قطع القطن ندية، وانتهكت مبكرا بين يدي طبيب، أو ممرضة كرفيقاتي، لتوقف صبوي للحياة وللحب، ولازددت دلالا، وتمنعا واستغناء، ولتوقف لهاثي نحو أمن وشبع لا أحصل عليها.

ربما كان الختان يوقظ إحساسا ما بالخطر، أو بالنشوة كلما عبر إلى جوار الجرح القديم عابر، ربما تلك نشوة لم أعرفها، ربما ذلك الجرح نفسه كان ليصبح محل زهو وحكي كرفيقاتي.

يُنبت الألم والخطر بأرحامهن ضعفا فطريا، وهن الأنثى، ذلك الضعف الفطري الذي لم أعرفه، بل كنت أقاومه، حتى نسيت أنه مفتاح قلوب الذكور.

وظننت أن قصص الاغتصاب والتحرش والختان، تثير تقزز الرجال ونفورهم، وكانت هي مفتاح قلوب الرجال، حين تبللها بكرا بضة طازجة، بدمعات ساخنة وأنات مدربة..

تلك خبرة لم تفطن لها أمي فاطمة الأستاذة الجامعية، ولم تعلمها لي، تدعي النساء أنها فطرة، وإنما هي حرفة، حرفة اللين بين يدي الرجل وأصابعه، تلك حرفة لم أتعلمها ولم أعلمها لك يا سارة.

هل تعلمتِها من دوني؟! في حكاياتي لك بعض عزائي.

ثم... ...

كنت أجد في المدرسة ضالتي، أجد ما أبحث عنه، في المرحلة الإعدادية، مدرسة البنات المجاورة لمدرسة بنين منفصلة، لم أرفع رأسي خلف السور لأرى ما يثير صيحات الفتيات، حين يراقبن الأولاد، أثناء حصص الألعاب، في الحوش المجاور لحوش مدرستنا..

السور العالي يفصل بين الأجساد، ولا يحول بين النظرات، تنطلق الإشارات والخيالات التي تحركها هرمونات البلوغ الجماعية، تنثر في الجو رائحة تُصبي الأساتذة الكهول، وتعيد إليهم بعض دقات قلوبهم، المتيبسة من الهموم.

أحببت أستاذ حلمي، أستاذ التاريخ، كما في الأساطير، الرجل الأكثر حكمة يفوز بقلب التعيسات، أما الجميلات فيبهرهن الشباب والفتوة.

كنت أحب أستاذ حلمي في صمت، وفي قناعة ورضا، اكتفيت به أستاذا للتاريخ والحكايا، يعرف كل شيء، يعرف ما حدث وما مضى، ويقرأ المستقبل، كنت أنبهر به ما إن يفتح فمه، كل ما كان يقول كان حِكمة، وأبيت تتردد كلماته في ذاكرتي..

كان كهلا في الخمسين، لكنه صلب العود، بذلاته قديمة، لكنها ما زالت محتفظة بقوامها، دائما يرتدي بذلة صيفا أو شتاء، في مرة رأيته خارج أسوار المدرسة، يرتدي ملابس رياضية، فانكسر شيء ما بيننا، اعتذر عنه لاحقا.

كنت أكتب له خطابات وأمزقها، كنت أترك تلك النظرة الحائرة، في عيني تؤرقه، وتحرك في روحه شيئا ما، يجعله يسترسل في الحكايا، ينظر إليّ وحدي أثناء شرح الدرس أمام البنات في الفصل..

يكمل من العصر الأموي للعباسي، ثم يعود ويبدأ من جديد، وسط ضجر الفتيات منه، ونظراتهن المسترحمة لجرس نهاية الحصة.

كان يبحث عن عيني العطشى، وما إن تنتهي الحصة ويرى تلك النظرة الخائبة في عيني، وأُمسك شعري المربوط خلف رأسي، يتهدل ويلتف حول أصابعي، أنظر إليه في ضيق يعرفه، يناديني لألحق به إلى غرفة مكتبه.

أجلس معه ليبدأ من جديد، تاريخ القاهرة القديمة وحيلة الفاطميين، وماذا فعل محمد علي.

ويعود فينسى أن يحكي لي قصة شجر الدر، وكيف ماتت، من منا كان يستمع للآخر، ويرتشف منه الحياة، لا أدري، لكنها علاقة بدت كقطعة منسجمة... كتراكيب الأطفال.

زملاء أستاذ حلمي كانوا يرشقون ظهري، بنظرات كالسهام، خاصة المدرسات البدينات، اللواتي يتمنين منه اهتماما، ولا يحظين به، كنت أشعر أنني لعبته، لكنني كنت أريد المزيد.

كنت أريد أي شيء يهدئ ضربات قلبي الثائر، كلما اقترب بأصابعه من وجهي، يشير لشيء ما تراه عيناه ولا أراه، ويسهب في قص التاريخ، وكأنما يستحضر أرواح أبطال حكاياته حولنا.

مرات كنت أضيق وأود لو يصمت، لكنني كنت أخاف أن أفقده. أفقد مكانة المستمع الشغوف الرابض في الصف الأول. من المسرح المكشوف، الذي لا يحوي سوى متفرج واحد، ومؤد واحد، ونص محفوظ، واتفاق مسبق بيننا على الانتباه، والوله والشغف، والإيماءات المتقنة، والابتسام والانبهار أحيانا أخرى..

كانت أنفاسه تلهب وجنتي، وتؤلم مكانا ما في بطني، تلك اللحظات التي كنت أنتظرها بشغف، كل لقاء يجمع بيننا، وربما أمسك يدي عَرَضا، أو ربت على كتفي، وربما لمس شعري سهوا، ذلك كان أقصى ما يمكنني أن أحلم به.

مر العام والعامان، وأنا على ثبات المتعلم أرتوي منه، وكان هو يزداد شرودا، كنت أسأله فكان يصمت ويبدو همة بين حاجبيه.

انتهى العام الثاني، وفي الصيف سمعت أنه حمل زوجته وأولاده، وسافر إلى ليبيا، في إعارة حكومية، لماذا لم يحملني مع حقائبه الكثيرة، المكسوة بكسوة قماش الدمور، المكتوب عليها اسمه وعنوانه، كنت مستمعته الوحيدة الوفية ولماذا لم يشركني في أمره، ويسألني ويشرح لي، وقد درب ذهني المتقد على الأفكار والحكمة، وأشربه عصاره فكره، كما كان يقول. تمنيت له الخير.

مرت السنوات ثقيلة بطيئة، مضنية كألم الأسنان، وعاد أستاذ حلمي من ليبيا، عودة الفاتحين، يرتدي خاتما في بنصره الأيسر، خاتما فضيا يحمل فصا أسود، حذاؤه اللامع أصبح له صرير، فوق تراب البلاط المشروخ في ردهة المدرسة.

يمد يده ويصافح الجميع، لكن يده تبقى منفرجة الأصابع، لا تحتضن كفا ولا تمنح دفئا..

عاد خفيف الروح والعقل أيضا، فقد هالة الحزن، هالة المفكرين، كان يضحك فنسمع صوته من الدور الأسفل.

أمام البوابة يتبختر مزهوا، وهو يركب سيارته الفاقع لونها، بذلاته صارت أنيقة، إنما فقدت رائحة الكتب وغباره، مناديل جيبه معطرة بالعطور الباريسية الباهظة، وملونة بألوان زاهية، ما إن يخرجها من جيبه، حتى تُفقد وجهه وقار السنوات.

صبغ الشيب في شعره، فازداد عمره وكبر في عيني، وظهرت تجاعيده أدق وأعمق، كلما بدت أسنانه وهو يضحك، ظهرت صفرة بقايا اللحم في أركانها..

دعاني لأجالسه كأيامنا التي مضت، لكنني كنت أتهرب منه، وأسوق له مئات الأعذار، بعيون زائغة أنظر إلى كل ركن بالحوش، أتلفت للطريق، وإلى

كل ذرة من تراب الأرض، ولا أنظر في عمق عينيه، وأي عمق تتوق له عيني، وقد بدت أعمق نقطة في روحه كبركة راكدة، تنتظر حجرا ما ليوقظها!

ثم...

فقدت يوما حقيبتي في الجامعة، كانت أول حقيبة جلدية بيضاء أمتلكها، كانت هدية أبي اشترى لي معها حذاء أبيض، له كعب متوسط يناسب مظهري المحافظ، وحزام وسط عريض، بوسطه توكة فضية لامعة، يومها أبلغني أبي أنه لم يعد يطيق الحياة مع أمي، وأنها لم تعد سكنا له، وإنما مصدر إزعاج لروحه المسالمة، وأقررت له بحقه في سلامه النفسي...

هل كنت أدري أنني طعنة في ظهرك يا أمي؟! انتقمت لوحدتي وثأرت لأنوثتي بانتصاره عليك.

حقيبتي كنت أملأها بمساحيق التجميل، والأقلام الملونة، وربطات الشعر وأوراقي الثبوتية، وقصاصات ورقية دونت فيها أشعارا وخواطر، وأنا في الطريق أودعتها حافظة نقودي الفارغة، إلا من القليل الذي يكفي أسبوعا، تركتها في غفلة، ضحكت فيها بين صديقاتي، غفلة من الفرح، كنت أراقب إحداهن، تقلد أستاذ المحاضرة السابقة، كنت أضحك ملء قلبي، وأتذكر أبي وهو يودعني، ويعدني أنه سيبقى بقربي إلى الأبد..

سُرقت حقيبتي وجلست أبكي، وأبحث عنها نهارا بطوله، وصديقاتي تدهشهن دموعي السخية الوفيرة.. كل هذا من أجل حقيبة؟!

ثم...

الفقد المفاجئ لكبريائي، كان يوم أن صرخ ممدوح في وجهي، في المكتب ماذا تريدين؟ أنت لست سوى امرأة عطشى، لا تعرف كيف تشبع عطشها، وترفضين الاعتراف بذلك، تتكبرين على احتياجك، وترين نفسك أميرة، تستحق كل هذا العناء!

يتناثر لعابه وأنا أنظر إلى فمه، وتصطدم بعض ذراته بوجهي

نعم أنا كالأميرة زينب.. أنت لا تعرفها.

ممدوح زير النساء، متعدد العلاقات، وسيم الملامح، حليق حتى تكاد لا ترى أثر شعره في وجهه، شعره ناعم مسترسل إلى جانب رأسه الكبير الفارغ، إلا من صور نسائه المشتهيات.

بلا عمق في عينيه الزجاجيتين، وروح جوفاء كالبئر، يتردد صدى مئات الأصوات بداخلها.

يفضلهن كبيرات في السن، كان يحكي لي ونحن صديقان عن مغامراته معهن، يزهو بهن أمامي، يطاردنه، يأتين له إلى المكتب، يجلسن فوق سطحه أمامه، يواجهنه وظهرهن لي، يأتين بأفخاذهن المكتنزة اللدنة، المحشورة في بنطالات سميكة، تُبقي للحم شكلا أقل تهدلا، أصغر عمرا، وإن كان ترهل مؤخراتهن يكشفه، كانت استدارتها وارتفاعها يوما تغنيها عن لبس القياسات الأصغر...

أخرج وأترك له المكتب، وما إن أعود حتى أجد يده فوق ساق إحداهن، وربما كتفها، أخجل وأخرج ثانية تاركة لها المكان لساعات..

كان يردد: حين تكبر المرأة يصغر عقلها، وتعيد مراهقتها من جديد، برعونة أكبر، وعطاء لا محدود، بلا مقابل سوى كلمات دلال وشغف وقليل اهتمام، تمنحها ربما أقل من نصف ما يُمنح للصغيرة المدللة، التي لم تعرف العطش بعد وترهقك دلالا بلا عطاء. كان يقذف بكلماته في وجهي وهو ينظر لي، يمد ساقيه ويرفع رأس حذائه ويبتلع ريقه، يطفئ سيجارته في بقايا قهوته فيحترق شيء ما في كبريائي وأنا أراقبه صامتة.

ثم... ...

نينة جمالات صديقة جدتي وجارتها، كانت جدتي ترسلني لها، كلما تذكرت أن الشعر القصير موضة، ويناسب وجهي أكثر أو ربما كلما سأمت من تمشيط شعري، فقد كان شعري مشعثا مجعدا ثائرا دائما، كشعر أمي المسافرة إلى بلاد بعيدة، بلاد أبعد من أن تتذكر فيها كم طال شعري ساعات على أن أبقى بين يدي نينة جمالات، لتتفرغ لي وتقص شعري، أو تعيد لي خياطة جيوب مريولي المدرسي الدمور، يمزقها كفي الملقى دائما بداخلها، كفي خشنة من مساعدة جدتي في أعمال البيت، ورعاية إخوتي، تستدفئ في أيام الشتاء المدرسية الطويلة بالجيب، تتكور على نفسها صامتة ترتمي فيه ككهف مغلق، كان جيب مريولي أصغر دائما من غضب قبضتي.. كنت أجلس بين يديها، فوق ماكينة الخياطة اليدوية السوداء، سنجر كان اسمها، لها طاولة جانباها من الحديد المشغول على شكل زهرتي اللوتس، تحملان القاعدة الخشبية للطاولة، تبيت بداخلها الماكينة السنجر، كل صباح تجرها إلى جانب ضوء النافذة، كان مسندها خشبيا بنيا يفتح من أعلى، وترفع الماكينة فوقه، وتضع قدميها فوق دواستها المعدنية.

تدور الماكينة، تحركها للأمام والخلف، حركة ثابتة بإيقاع منتظم، يطربني صوتها، كانت تحاول أن تعلمني كل ما تتقن، من فنون الحياكة والتفصيل، وكنت أفتح لها عيني وأذني وقلبي، كانت وحيدة وكنت وحيدة مثلها، شعرها الحريري كتانة بيضاء ناعسة، مربوط بحزام خلف رأسها، تقول أنه كان يوما كشعر نادية لطفي في فيلم الخطايا، قامتها منحنية من الهموم، رغم أنها أصغر من نينة زهيرة بعشر سنوات على الأقل، لكنها تبدو أكبر منها. الدبابيس تشبك في صدرها متجاورة، وحول رقبتها القصيرة شريطة القياس الحريرية، تقول هوانم القصور التف هذا الشريط حول خصورهن، يكلل أصبع السبابة في يدها اليسرى كستبانها المذهب الصغير، يحمي إصبعها

من وخزات الإبر، لم يحم قلبها من وخزات الزمن، علمتها سيدة يونانية في الإسكندرية، حرفة الخياطة والتطريز، أقامت في بيتها سنوات طفولتها، قبل أن تنتقل إلى القاهرة بصحبة أبيها، وتفتح أتيليه خياطة خاصا بها لبنات الذوات..

كانت في شبابها قبل أن يسرح بصرها، ويبهت سواد حدقاتها، تحيك أثواب السهرات، والأفراح للأميرات، وبنات الأسر الثرية، كن يجزلن لها العطاء ويشاركنها مناسباتهن، تأتي وتجلس في بيوت الأكابر وتخالطهم، ولهذا كان كلامها ومشيتها وذوقها، يناسب وجهها الأبيض المشرق المتلئ. تقول إنها في شبابها كانت جميلة ولا يفرق الناظر بينها وبين بنات الأكابر، كنت أنتبه لها وهي تتحدث بلا حركات جسدية، ولا إشارات باليد، ولا رفع صوت، كانت راقية.

تنتبه إلى أنني أجلس معها لساعات، فتعد لي طبق حلوى ولبنا دافئا، وتنتظرني بتمهل حتى أنهي طعامي، ثم نكمل عملنا، علمتني تطريز المفارش والمناديل الحريرية وأهدتني إبر الكروشيه والتريكو لأستمر وحدي وأكمل ما بذرته في مخيلتي، أنبهر بيديها وأصابعها الموهوبة، ووجهها الخالي من التعبير، ويوما بعد يوم كانت تترك لي الماكينة، أصلح بها ملابسي، وتراقبني ويدي تدور معها، وتحتضن أصابعي عجلتها الجانبية، تقول لي انتِ موهوبة.

تقص شعري كل ربيع، وتحكي لي عن أيام الملك فاروق، وحاشيته والأميرات والأوبرا وروائح العطور الباريسية، التي تبقى في السجاد وتفوح وتتعلق بالثريات الكريستالية المتلألئة بألوان الطيف، ومعاطف الفراء وفساتين السهرة الباريسية والأحذية اللامعة ذات الكعوب العالية المدببة. كان كل شيء حاضرا في أبهة وبريق.

كانت تقف في دار الأوبرا، فوق خشبة المسرح في الصباح قبل الحفلات الليلية، تتفقد التفاصيل مع عين أبيها مشرف الحفلات، الأضواء والتنظيف وقماش الستائر والتنجيد... كل شيء، وتسمح لنفسها بلحظات تحلم فيها، تختفي في الكواليس قبل أن يأتي الحضور الأنيق الراقي، تقف مع أبيها خلف الستائر السميكة، تراقب المجتمع المخملي، وهو يتحرك ليجلس بهدوء ونعومة، كالماء المنساب في نهر رائق رقراق، تختار زبائنها من بين الجميلات الثريات المنعمات، وتحلم بالقفازات الحريرية، وأصابع أحمر الشفاه، التي تبقي الشفاه ناعمة وأنثوية، وغضة ممتلئة بالحياة.

تزوجت نينة جمالات من موظف بهيئة السكك الحديدية، كان طموحا واعدا، يشبه أحمد مظهر في هيئته الكلاسيكية، وصلابة عوده، رأيته بالصور المعلقة فوق الصالون المذهب، صور زفافها، أبيض وأسود لكنها تضج بالحياة، تعرفت إليه عن طريق زبوناتها، وعلم بعملها فأصر منذ البداية أن تتركه، وتتفرغ له ولبيته، وتنسى ذلك الماضي غير المشرف، من العمل كخياطة، كان شرطا مُهينا قبلت به، حتى لا تعلم أسرته ولا يعلم جيرانهم في البيت الجديد، ولا أصدقاؤه في العمل، أن زوجته كانت خياطة.

فستان زفافها هو أجمل وآخر ثوب زفاف طرزته، كان بياضه شاهقا، يخطف بأضواء تطريزه العيون الحاسدة، رأيته في الصورة، تصفه لي وهي تنظر بعيدا، كان له ذيل طويل مطرز الحواف، كفستان الأميرة فريال، وصدر مفتوح كفستان الأميرة نازلي، ووسط محبوك كفساتين فاتن حمامة.

مضت بها السنوات زوجة وفية مخلصة، صادقة محبة لزوجها، ترعى غيبته وبيته، وانتهى بها الحال إلى الخياطة سرا، ومواعدة زبوناتها في البيت وهو بعمله، حتى لا تثور ثائرته، تعمل كاللصوص في الخفاء، لتساعد أولادها وتحمل عنه عبئا لا يعلمه، تخبر زبوناتها بسرها الأعظم فيشفقون عليها،

يأتونها وفق مواعيد غياب زوجها عن المنزل، أبناؤها جميعهم يكتمون سر الأم ويساعدونها.

مرت أيامها بين قطع القماش الزاهية الحريرية، ورفي وتطريز الفساتين وكيها بالبخار، والذهاب بها إلى الزبائن أحيانا.

كبر أبناؤها بين صوت المقص وصوت الماكينة، ومراقبة السكة والإنذار بعودة الأب، الذي لا يخلف موعد حضوره، يضبط وقته وفق ساعته الذهبية المستديرة، في جيب بذلته الصغير، كبروا وتعلموا وتخرجوا في الجامعة، وزوجها حاضر غائب، لا يدري عن عملها شيئا..

مرت سنواتها بسلام، حتى وقعت واقعتها الكبرى، تورطت مع إحدى زبوناتها الثرثارات، زوجة أحد أثرياء الصدفة والحرب، واختلفت معها حول كلفة الدانتيل المستورد وسعرها، فانتقمت منها الزبونة الشابة، ابنة بيوت الأكابر وفشت سرها للزوج، وهي تطلب منه كلفة الفستان الذي أتلفته زوجته.

وسط أبنائها وقفت نينة جمالات متلعثمة، مصفرة الوجه خجلى، ترتعد خوفا تحرقها عينا زوجها بنظرات الغضب والغل، زوجها المعتز بكبريائه طلقها فور أن خرجت الزبونة من بيتهم، وأمام أبنائها وترك لها البيت والأولاد، ورحل عنها إلى الأبد..

وعادت تخيط ملابس البيت والملايات للجيران، رحل زوجها وترك لها من الوهن والخيبة ما أصاب عقلها، نوبات بكاء لا سبب له، سوى حزن له ألف سبب لا تريد أن تتذكر منها أي سبب.

كانت تحكي حتى ينهمر الدمع من عينيها، وتنسى ما بدأت حكايته، أولادها ذهب كل منهم في طريقه، وتركوها وحيدة في بيتها، تأتيها بنات الجيران لمساعدتها في أعمال البيت، أو لحياكة جيب مريول أو قصة شعر

كالهوانم، أو استعارة أدوات خياطتها، أما ماكينتها فكانت ترفض أن تحركها، من مكانها بجوار النافذة، وتسمح لي فقط باستخدامها.

كان أصغر أبنائها يأتي كل نهاية أسبوع ليزورها، وكنت قبل أن ألد سارة أذهب إليها لأذكرها بأيامنا معا، كانت تسألني عن اسمي وكنت أكتبه لها، فوق الحائط إلى جوار فراشها.

كانت تهذي كثيرا، وتنسى كثيرا وتبكي كثيرا، كانت تتمنى لو يسامحها زوجها ويعود إليها، كانت تصرخ في نافذتها باسمه، وكان الجيران ينزعجون ويطلبون أبناءها فيأتي ابنها الأصغر ويغلق النافذة بالأسابيع، ويمضي إلى بيته ويتركها، حولها المعلبات والأدوية وأمامها التليفزيون وإلى جوارها الراديو الصغير، ذلك الراديو الذي حضر معها كل أنغام حفلات الأوبرا، وأيام الشباب والضحكات، كلما زرتها طلبت مني أن أدير لها الراديو، تضع أذنها فوقه، وتتذكر ألحانا لا تنساها، تريد أن تسمع "بانادي عليك" لفريد الأطرش وتبكي حين تذكره يقول:

"بانادي عليك

نسيت حياتي اللي قبلك وذكرياتي اللي فيها

وروحي تتمنى ظلك يمشي ويخطر عليها"

وتصف لي ما كان يلبس فريد الأطرش، وهو يغني هذه الأغنية، ولون بدلته وربطة عنقه ومنديله، ورائحة عطره، ومسكة العود بين يديه، أين كانت تقف وهي تسمعه خلف الستائر، كان ينظر إليها من وقت لآخر، أو ربما توهمت أنه يراها، بفستانها القصير، وربطة شعرها الطفولية، وحذائها الملامس للأرض تقف ثابتة كالتماثيل الرخامية الباردة، من فرط انبهارها، هائمة في صوته يتساقط دمعها كلما حنت لحب لم تعشه، وقلب كانت تتمنى أن يرافقها طريق الحياة حتى الممات، حنين تعرفه النساء تنطوي عليه جيناتهن،

يصبغ وجوههن بحمرة الخجل، وأيديهن برعشة الشوق، ومعدتهن بدغدغة اللهفة، والتوق لحظٍ يتمنينه، ولا تمنحه الحياة سوى للسعيدات منهن فقط.

تظل النافذة مغلقة، حتي تأتي إحدى بنات الجيران خلسة، وتفتحها لها.

كنت أحكي لنينة زهيرة ما يحدث لها، فكانت تذهب لزيارة السيدة نفيسة وتدعو لها الله، أن يرد لها عقلها، فهي لا تستحق أن تموت، وقد ذهب عقلها أيضا.

كانت نينة زهيرة تقول:

إن صوت المقص في الليل يذهب البصر والعقل، وأن نينة جمالات فقدت عقلها يوم فقدت زوجها.

ماتت نينة جمالات وحيدة، منسية فوق سطح بيتها، شبه عارية نائمة في الشتاء، نسيت أن ترتدي ملابسها، وصعدت للسطح تغني لفريد الأطرش بانادي عليك، وربما كانت تريد أن تؤذن لصلاة الفجر، كما اعتاد جيرانها أن يسمعوها ظهرا أو عصرا، وفي أي وقت تريد.

كانت تنسى أن تشرب، وتنسى مكان مفتاح النور في الغرفة، ربما نسيت أين دواؤها الذي يذكرها من هي، واسمها وأسماء أبنائها وأرقام هواتفهم، وأين يعيشون، وماذا كانت تعمل.

أصبحت أنسى كل شيء أي يوم نحن؟ أي شهر؟ اسم الشارع الذي أسكن فيه في مصر؟ هاتف أمي؟ موعد إغلاق المستشفى؟

هل هذا هو الخرف المبكر؟ هل أصبت بالزهايمر؟

هل سأصبح مثل نينة جمالات؟ أو تاتشر؟!

رئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر المرأة الحديدية، التي دمرت حياة الآلاف من العمال والفقراء.. هل أستحق مثلها عقابا إلهيا بذهاب العقل والخرف والوحدة؟!

هل يجب أن أشعر بالخجل، لأنني أهنت سيدة عظيمة، أنقذت بلادها بالحديث عنها بالتشفي والشماتة، في أشد لحظات ضعفها.

مجرد عجوز وحيدة مصابة بالزهايمر، لا تدري بنا لا بالمؤيد ولا بالمعارض، تعيش في سجن الفراغ، تنسى من هي.. تخلى عنها ولدها وعقلها أيضا..

حين يذهب الولد يذهب معه العقل... كانت تقول نينة زهيرة.

هل أوصى النبي محمد بالأمهات ثلاثا لأنهن أكثر حبا لأولادهن؟ أم لأنهن يتعذبن أكثر؟ أمك ثم أمك ثم أمك... ثلاثة أضعاف عذاب الأب.. الوصية لمن تعذب أكثر.

هل كان الأب بحاجة إلى عذاب أكبر، ليحظى بمرتبة أعلى لدى أبنائه؟!

مريم

وهبني حزني صباحات بلا خطايا، ندية كأنفاس الأطفال، ككرة ترتد من حائط إلى حائط تفقد قوتها، وما تلبث أن تكتسب قوة أكبر.. أتنقل بين ساحات الصلاة في المساجد في الكنائس، أدور في ملاعب الأطفال، في الحدائق أمام الشواطئ، ألقي بنفسي داخل البحر، الماء الذي يغمرني... سخرته يا إلهي لأغتسل به من كل آلامي ويأسي، تحت الماء أفقد كل حواسي إلا شعوري بقربك يا إلهي، تتحرك شفاهي بتراتيل وتلاوات يسمعها كل من بالماء، ومن تحته، ذبذات تتردد إلى الأبد، تحمل معها كل صلواتي وابتهالاتي ويقيني بالله أنه معي، ولن يخذلني وإن خذلت أنا نفسي آلاف المرات..

أنام ثم أصحو كمن يسافر من بلد لبلد، ثم يذهب إلى جبل في البلد الجديد، ثم يذهب لكهف أو غار داخل هذا الجبل، ليتعبد ويتفكر بقلبه.. هجرة ثم هجرة ثم هجرة.. قلب داخل قلب داخل قلب. ولادة جديدة حتمية، في لحظة ما أوشك أن أستيقظ، مثل حمل انتهى وقته تعقبه ولادة.

أهيم في قاعات عزف الموسيقى، في صالات السينما، في الطريق بين الخلق.. خلق الله أتأملهم.. و أفكر فيه آلاف المرات.. أي بطن يسع نطفتك سوى بطني يا سارة؟!

نفوس البشر عجيبة لا تحترم اختيار القدر، الطبيب يستكثر الشفاء على المجذوم إن لحقته رحمة ربه، الأخ يستكثر النعمة إن سقطت في يد أخيه، حتى حبات المطر إن اختارت أين تمنح نفسها تجد ريحا تعوقها، وألف فم ينفتح يحول بينها وبين رقدتها التي اختارت.

كنت قبل أن أكون أنا السؤال، أتساءل كيف تقبل الأم أن تربي طفلا ولدته امرأة أخرى!! فالأم لا تشعر بأمومتها إلا بحملها لطفلها تسعة أشهر كاملة،

تشعر به في أحشائها كل شهر وكل أسبوع وكل ليلة، ينمو وتنمو معه أمومتها، يميل قلبها نحو بطنها، وتسمع دقات قلبه، تبتهل إلى الله كل ليلة حتى تضع طفلها بسلام، تنسى ألمها وتعبها من أجل إنجاب ذلك الطفل، كيف تقبل امرأة طفل أخرى تضعه في رحمها، وبعد تعبها ووضعها للطفل، يذهب إلى تلك المرأة الأخرى، لتأخذه منها أو تشتريه بالمال، كيف أكون أنا وعاء لطفل امرأة غيري؟!

هل أكون أنا الرحم المستأجرة؟! مثل هذه الأمور تحدث في الظلام كل يوم، لا أحد يخبر عنها، لا الطبيب ولا الزوجين ولا الأم المستأجرة، الإنجاب يتم بأخذ بويضة من سارة وإخصابها من زوجها، لكن صاحبة البويضة لم تعد قادرة على الحمل.. ابنتي سارة، لم تعد قادرة على إيواء نطفتها.. البويضة الملقحة منها سأتلقفها أنا في رحمي بدلا منها، أحمل هذا الجنين ويسكنني حتى الولادة، هل تقبلين بي يا سارة وعاء بديلا، أكون أنا القرار المكين لنطفتك!

يقولون إن الله سيرفض، إنهم لا يعرفون الله كما أعرفه، عرفت الله في كل قدري، عرفته منذ ألقيت الدنيا ورائي، هل يرضى الله لبذرة سارة أن تموت؟ هل يرضى الله ألا أغيث ملهوفا متضرعا يستنجد بي؟ روح تئن تطلبني للنجاة؟ روح أتت إليّ راجية على عجل، تذوى الحياة في أوصالها يوما بعد يوم.. رءوس غارقة في الضلالات أسعى إليها أستلهم من ضلالاتها هداي، أي معنى قد يحملونه إليّ أعظم من قدسية الاحتياج التي أخاطبهم أنا بها؟!

الحب معرفة، وأنت تعرف من تحب، يستجيب القلب للنداء الخالد، الذي ينبعث من هذه النفس الظمأى إلى بحر الألوهية العميق، ليس الإنسان وحده هو الذي يبحث عن الله، يقولون إن الله يتفضل علينا بجانب من رضاه، ليبدأ في منح الود والمحبة، ويبحث عنا، وكلما تقربنا إليه شبرا تقرب إلينا ذراعا..

كان قلبي ساعة الخطر والمحنة يتجه دوما إلى قوة كامنة، أحس بها وأشعر بوجودها ولا أدركها..

أنا مخلوق واحد من مليارات المليارات من مخلوقات الله على هذه الأرض، وكل المخلوقات تسبح دون أن نفقه تسبيحها، وما تساوي أرضنا في هذا الكون الفسيح، المتلئ بشموسه وأقماره ونجومه وكواكبه الذي لا نعلم؟

أظن أنني في هذا الجمع لست الأكثر ثراء أو علما، أو قدرا وشرفا أو ذكاء، وأوقن أنني لست أكثرهم اتقاءً لله وخشية له ولا أخلصهم حبا له..

فمن أنا؟! من أنا بين هذه الجموع وماذا يضير هذا الجمع إن لم أكن معهم؟

أخفيت وجهي بين كفي يدي وأغمضت عيني وتفكرت:

ألمثلي ينصب العظيم سبحانه وجهه تجاه وجهي إن شرعت في الصلاة؟ إذن يعرفني الله باسمي، ويسمع صلاتي وندائي وحاجتي إليه، عرفت اليوم أنني أحوج ما أكون إليه.

خالي مصطفى يوافق أن أكون أنا الأم البديلة لنطفة سارة، خالي مصطفى يقول: إن الله سخر لنا الخير لنحيا به ونعرف به الله، وسخر لنا الألم لنعبر فوقه ونذهب إليه، وإن الشر يكمن في أن نقاوم أو نرفض الاستسلام، فتمتد آلامنا وتطول. هكذا تطول ألآمنا حين نقاوم تعلم الدرس، خالي يعرف الله الذى أعرفه أنا.

هشام يرفض ويتشنج كعادته، ويقول إنه يعرف أن الله سيرفض، وستلعننا الأرض والسماء، لعنات جديدة! هشام يتوعدنا بغضب وعذاب ومصابات في النفس والولد، وأنا لا أخشى مصابا في النفس والولد، كلاهما أصبت به، ماذا بعد لدي لأخسر!

ماذا ترين يا أمي أنت وجدتي؟

هاتفيا أتحدث إليهما، وأنا أعلم ما سيقلن مسبقا...

أمي تبكي... وجدتي تنتحب: افعلي ما يتوجب عليك فعله.. فقط عودي إلينا.

يا مها كلتانا تنتظرك أنت.. لا تفعلي بنا كما فعلت سارة بك.. يا إلهي.. هو الحرمان.. اللعنة التي تطاردنا.. ظننت أنه الحب!

أرقد ورأسي فوق سرير العمليات، مثبتة الأذرع والأرجل، أنظر بثبات نحو الأعلى، أنظر للأضواء فوق رأسي، تبدو كنجوم تدور في فلك ما...

أضواء ساطعة تتوحد، وتلتقي وتشع أضعاف قدرتها، تطلق لهيبا يخترق رأسي، يخيل إليّ أن سارة تقف فوق رأسي، خلف الأضواء.

أسمع حديث الطبيب إليّ.. نحن نقترب من النهاية.. تماسكي.. حركة بالغرفة في كل اتجاه، أصوات الآلات تطن ويرتفع صداها في رأسي.. أشعر أنني أطفو فوق الماء وأنت تمسكين بيدي.. لا تذهبي يا سارة قبل أن تطمئني على طفلك.. الأصوات حولي تخفُت وتتباعد، ثم تعود وترتفع بي كموج البحر..

أسمع صرخة حياة، بين أيدي من يرتدون البياض أرى طفلي، طفلك يا سارة... خرج للنور عاريا دافئا، يبكيك معي...

وبدا لي أنني أرى سارة خلف حجاب رقيق، تلمس بأطراف أصابعها رأس الوليد، وبانتحاب عميق أحسست في أعماقي بألم مقدس ولذة أقدس.

- congratulation Maha.. it's a girl.

تأتي أصواتهم من بعيد.. أحاول أن أفتح عيني وفمي، أتلقفها بين ذراعي يثبتونها فوق ثديي الوحيد، ثدي واحد بقي لي، سيكفيها، تلتقط حلمة صدري بين شفتيها، ألمس بيدي الواهنة جسدها الدافئ.

غير عابئة بما يفعلون بنصف جسدي الذي ما زال ينبض وينزف، أمسكت بيديها ورحبت بها، لمست وجنتيها بشفتي الواهنة وهمست لها..

شممتها مثلما تفعل كل الثدييات، تشبثت بأصابعي، تجمد الزمن من حولي، وكأنما حبس العالم أنفاسه انبهارا بنور يطل من جبهتها.

هل قابلت أمك؟ هل عرفت سارة؟ أين كنت؟

أخشى أنك حين تتمكنين من الرد على أسئلتي تكونين قد نسيتِ الإجابات كيف كانت السماوات؟ كيف كان الفراغ؟ أين تذهب النجوم في النهار يا حبيبتي...؟

أي اسم ستمنحينه لها؟

أسمع بقلبي كلمات الله تتردد:

"أَنَّى لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِن عِندِ اللَّهِ"

يكرر الطبيب أي اسم ستمنحينها؟

أي اسم أمنحك يا ابنتي؟! أي اسم ستحملينه بعد سارة؟

أتمتم:

"وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بك وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"

اسمها مريم.. مريم.

ابنتي سارة وامي فاطمة وجدتي زهيرة ، ثلاث نسوة في حياتي تتشاطر قوة روحية ، تحرك الجبال لكنها لاتحركنا نحو قلب رجل لا نهواه تحكي كل منا قصة تروي أجيال بعدها ، داخل كل منا امرأة هي تلك المرأة التي تهفو لها قلوب الشعراء والكتاب ، ليحكوا عنها ويرووا سيرتها ويتندروا بها ، لا ليحبوها ويسعدوها امرأة يخافها الرجال ، امرأة تمتلك كل القوة وكل الضعف وكل الفقر ، فقر وحزن لايعرف قدره سوانا، شروخ في الروح ، وزفرات حارة كزفرات المراجل ، ليل يطول وصبح مؤرق صدر موجوع ممتلئ بالذكريات ينز هما.

تصميم [illegible]

978-977-351-751-9

ميريت